العزف..

على أوتار الحياة..



الكتاب: العزف على أوتار الحياة

المؤلف: مصطفى عبدالعزيز

رقم الإيداع: ٥٠٩٤ \ ٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٩ - ٨٢ - ٦٧٤١- ٩٧٧- ٩٧٨

***

دار الميدان للنشر و التوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف ٠١٢١٠٣٤٣٥٩٣/٠٥٥٢٣١١٤٠٨

Website: www.daralmidan.com

E- mail: almidan@daralmidan.com

FB: fb.com/dar.almidan

طُوبى لِمَن عَزَف عن الدنيا..

مصطفى عبد العزيز

إهداء

لكُل مَن أضاء ظُلمة طريق لعابر سبيل.

لكل مَن اختار الإختلاف رغم كُلفَته..

لكل مَن لا يزال يتذكر أنَّه إنسان...

العزف.. على أوتار الحياة

مقدمة

منذ الأزل والحياة تكتنز بأنماط مُتعدِّدة من البشر ذوي الصفات المختلفة والأعراق المتنوعة ولهجات يصعب إحصاء عددها، وملامح متابينة.. فالبشر يتابينون في كل شئ بدءاَ من بصمات الأصابع ومروراً بالحمض النووي، وانتهاءاَ بما يمُر به كل إنسان من أحداث بسيناريوهاتها المتناقضة، لكنهم يجتمعون فقط على شئ وحيد وهو أن لكل منهم حكاية حتى وإن اختلفت في تفصيلاتها، إنما لم يُخلَق بعد مَن هو بلا حكاية.

فالحياة ما هي إلا عبارة عن مجموعة من الحكايات التي يرويها أصحابها وأحيانًا تأخذ الحياة ذاتها دور الراوي فتقصّ حكاية بعض البشر بالنيابة عنهم لِتُخلِّد ذكراهم وترد لهم بعضًا من كثير أعطوها إياه.

عادة ما يمتنع العظماء عن رواية حكايتهم لرؤيتهم المتواضعة لذاتهم مهما علا شأنهم، أو ربما لنسيانهم روايتها لما تحمله حياتهم من زخم، فيبعث لهم الله مَن يرويها لهم لتظل خالدة عبر الزمن.

أما السفهاء - وهُم الغالبية العظمى- فيتصارعون لرواية حكايات لا تتجاوز سطورها إلا كلمات معدودة ولا تتجاوز كلماتها إلا حروفًا محدودة.

من تشابك حكايات البشر وتَداخُل ببعضها البعض تولد الأحداث والصراعات، وبها يُكتب التاريخ، وبسببها تتغيّر خرائط الأرض، فبلاد تختفي، ودول تولد.. فلولا الحكايات ما وُجدت الحياة، ولولا الحياة

لما كانت الحكايات، فهما وجهين لنفس العُملة.

سطور حكايات البشر تختلف بين حكاية تمتلئ بسطور الحب وأخرى تكتنز بالكراهية.. سطور أنين وأخرى يفوح منها الحنين.. سطور تعوي من الفقر وأخرى مُتخمة من فرط الغنى.. سطور يفوح منها آلام وسطور تعيش الأحلام.. سطور ساجدة بين أخرى جاحدة...

القليل من بين البشر تكون بين طيّات سطور حكايتهم سطور مُختفية - كتلك التي تُكتَب بالحبر السري- تروي بدورها حكايات وحكايات، سطور لا يُدرِك وجودها إلا القليل.

فلكل منّا حكاية تُروى، يتذكرها القليل ويتناساها الكثيرون، ولكن للبعض حكاية تظل خالدة مهما حاولنا نسيانها أو تناسيها، حكاية يَصعُب وضع نهاية لها، فهي تلك النوع من الحكايات التي تُتَوارث وتُحكى على لسان أجيال مُتعاقبة وتُحفَظ بالصدور قبل العقول، ومن هذه الحكايات حكاية آدم.. عازف الناي الفقير..

ذلك الشاب الذي عزف مرتين..

عزف عن الدنيا..

وعزف على أوتار الحياة.

شهر أبريل.. ٢٠١٢

كعادته في تمام الساعة السادسة والنصف من صباح كل يوم -عدا يوم الجمعة- يبدأ آدم بالترجّل من مسكنه، من تلك الحارة الضيقة المُتعرَجة الطرقات ذات المباني القديمة المتهالكة إلى حد بعيد والتي يقف أغلبها شامخًا في وجه عوامل الزمن، رافضةً الإنهيار، وبالرغم من تهالكها إلا أنها ما زالت تُفصح على إستحياء بأصالة وعراقة تفتقدها الكثير من المباني الحديثة ذات التصميمات المعمارية الأنيقة، يتوجّه إلى مكان جلسته المعتادة، حاملًا تحت إبطه ذلك الصندوق الخشبي الصغير المستطيل الشكل والذي لا يفارقه أينما ذهب، والذي لا يزيد طوله عن بضعة سنتيمرات قليلة، وبعرض وارتفاع لا يتجاوز أربعة سنتيمرات، ويده الأخرى تتكئ على عصًا معدنية تُعينُه على طريقه الذي يستغرق قرابة النصف الساعة مُترجِّلًا، ليصل في تمام الساعة السابعة إلى وجهته المعتادة.

هنالك في تلك البقعة ذاتها أمام منتصف مبنى المستشفى العريق ذو الأربعة طوابق والذي يمتد بطول يقترب من ثلاثمائة متر وبالعرض ذاته والذي كان قصرًا ترجع ملكيته للعائلة الملكية وتم الإستحواذ عليه بعد تحوّل مصر لجمهورية ومن ثَمَّ تم تحويله لمستشفى عام تابع لوزارة الصحة المصرية، يتخذ آدم وضعيته المُعتادة منذ ما يقرب من السبعة أعوام على الأرض مُتربِّعًا، تلك البقعة التي كانت حديقة تابعة للقصر الملكي إلى أن تحولت بمرور الزمن إلى خيال مسخ يشي على إستحياء بالغ بأنه كانت هنا حديقة

في وقت ما، مُستندًا إلى إحدى تلك الشجيرات العتيقة والتي ما زالت تحتفظ ببعض الأغصان، وقد أبت أن تتخلى عنهم ومُحتضنة القليل من النجيل الأخضر حولها، واضعًا أمامه صندوقه الخشبي الصغير.

عادةً ما يبدأ توافد المرضى من السابعة والنصف صباحًا لحجز أدوار عرضهم على الأطباء، الذين يصلون بدورهم -من مختلف التخصّصات- في الثامنة.

عادة ما يستغل آدم النصف ساعة الفاصلة بين وصوله وبين توافد المرضى في تناول كوب من الشاي الذي يُحضِره له الحاج نبيل صاحب الكشك* الصغير الذي يَبعُد بضعة خطوات قليلة من موضع جلسته.

بعد أن انتهي من تناول كوب الشاي، فتح صندوقه ليَخرِج منه النايّ -ذلك الصديق الذي طالما لازمه منذ أن كان صبيًا- ليبدآ عزف ما يتوارد لذهنه من ألحان، تاركًا ذاك الصندوق مفتوحًا ليضع فيه المارة بعض النقود إذا ما أرادوا، كوسيلة للتعبير عن إعجابهم بمهارة العزف والتي تكون عادة بعض من العملات المعدنية قليلة القيمة.

يبدأ تصاعد تلك النغمات الساحرة اللافتة لسمع وإنتباه كل مَن يمر من أمام ذاك المستشفى، واشية بمهارة تلك الأنامل التي تداعب تلك الفتحا ت الصغيرة على سطح الناي الذي صُنِع من أجود أنواع

---

*كشك: دُكَّانٌ صَغِيرٌ مِنَ الخَشَبِ أَوِ القَصْدِيرِ وَنَحْوِهِ مُنْعَزِلٌ فِي زَاوِيَةٍ مِنَ الشَّارِع.

القصب البري للدرجة التي تجعل البعض يستقر في مكانه لبعض الوقت للإستماع، أو على الأقل الإبطاء بقدر الإمكان لينال أكبر قسطٍ من الإستماع والإستمتاع أيضًا، ومنهم مَن يتوجه إلى ذلك الصندوق ليضع به القليل من

المال، تشجيعًا لتلك الموهبة من ناحية.. أو إعجابًا بها من ناحية أخرى، أو كلاهما معًا.

كالعادة أيضًا يصيح الحاج نبيل بصوته الجهوري مُخاطباً آدم ومشجِّعًا له:

- الله عليك يا دكتور.. قول كمان، اشجينا واطربنا والنبي يا دكترة.

ثم يُكمِل جهيره:

- شاي.. بسكوت.. يا مين يشربك يا شاي، لبان.. حلويات.. وللغلبان ببلاش.

هكذا يظلّ الحاج نبيل يردد نداءاته طيلة وقفته، ذلك الرجل الذي تفوح من كل قسمة من قسمات وجهه طيبة وشهامة وبشاشة، تلك الصفات التي قد عفا عليها الزمن، وأصبحنا لا نراها أو نسمع بها إلا من خلال بعض الأفلام أو الروايات، أكثر ما يُميِّزه ذلك الشارب الكثّ الذي اكتسى ببعض الشيب وغطَّى شفته العلوية بكاملها وتلك الطاقية البيضاء التي تغطي ما تبقى من شعر رأسه والذي اشتعل شيباَ، والتي اقتناها من العُمرة الوحيدة التي قام بها

منذ سنوات- لا يتذكر عددها- لبيت الله الحرام من خلال أحد الجمعيات الخيرية، ذو أذن مُستديرة.. وأنف مُدبّب نوعًا ما.. وذقن بارزة.. وفم ذو شفتان غليظتان لم يتبقَّى به إلا بعض الأسنان التي قد نجت بمُعجزة من شراسة مرض السكري.

يظل هناك للخامسة مساءَ ليغادر قبل غروب الشمس ويعقبه آدم بعد قرابة الساعة لينتهي من عزفه في السادسة، حاملًا صندوقه الخشبي عائدًا إلى منزله من نفس ذات الطريق الذى أتى منه.

ما أن يلج آدم حارته، ينادي عليه الحاج جميل -صاحب مطعم ألف ليلة وليلة للفول والفلافل- قائلًا:

- يا دكتور.. غداك جاهز، تاخده معاك؟ ولّا أبعته على القصر بتاعك؟

يرد عليه آدم مازحًا:

- سُخن ولّا زيّ كل يوم؟!
- سُخن زيّ كل يوم يا دكتور ومتظبط آخر حاجة.. مطرح ما يسري يمري.

يلتقط آدم تلك اللّفة الصغيرة مُتوجّهًا -كجزء لا يتجزّء من عاداته اليومية- إلى صيدلية الدكتور خليل، والتي بدورها تبعُد ربما

خطوتين أو ثلاثة من منزله، ليستقر بداخلها بضعة دقائق قليلة مُحادثًا دكتور خليل -مالك الصيدلية ومُديرها- حديثًا قصيرًا، ثم يتوجَّه لبيته مباشرة.

اللافت للنظر أنه بمجرد مروره من أمام الدكانين* المختلفة المتجاورة والمتلاصقة وقهوة الحارة تتعالى

أصوات الترحيب به بعبارات مختلفة، تَنُمّ عن سعادة أهل الحارة البسطاء برؤيته وبعودته سالمًا إليهم..

كان يقطنْ بسطح عقار ذي ثلاثة طوابق، والذي ظهرت عليه علامات الزمن بوضوح جلي، فجدرانه المتشقِّقة تحكي الكثير من الذكريات لمَن أراد أن يستمع وبقايا طلاء مُقشَّر وشبابيك خشبية قد نُحتَت من الخارج بفعل الأمطار والعوامل الجوية، كان مسكنه ذو الحوائط الخشبية المُصنّعة بشكل يدوي عبارة عن صالة إستقبال صغيرة المساحة ومستطيلة الشكل وحجرة نوم واحدة، ربما أصغر من صالة الإستقبال، بها شباك واحد والوحيد بالمنزل الخشبي والذي يطل على الحارة ويعتبر المدخل الوحيد للهواء وأشعة الشمس، وحمام صغير يفصله عن صالة الإستقبال ساتر من القماش السميك. لم يحتوي على مطبخ، فهو لم يكن بحاجة إليه ولا لأجهزته المختلفة من موقد وثلاجة وغيرهما، وبطبيعة الحال لم يكن يمتلك تلك الحصون الخشبية المُسماة بدواليب المطبخ الباهظة الثمن والتي عادة ما يتباهى الناس بامتلاكها أكثر من إستغلالها، فكان

---

*دكاكين: جمع دكان وهو متجر صغير لبيع المواد الغذائية المُختلِفة.

يستعيض عن كل هذا بموقد صغير يعمل بالكحول الأحمر -سبرتاية- إذا ما احتاج لإعداد قدح من الشاي أو القهوة.
بالرغم من المظهر الخارجي الفقير لذلك المسكن إلا أنه بمجرد الولوج داخله يتبدَّل الإحساس تمامًا بسبب الراحة النفسية والهدوء، وبرغم احتوائه على أقل من الحد الأدنى لمحتويات أي مسكن آخر -من أثاث وغيره- وديكورات باهظة الثمن، لكنه يمنح الشعور بامتلاكه لكل شيء.
جلسة آدم المُفضَّلة كانت دائمًا في الغرفة الصغيرة المُخصّصة للنوم أسفل ذلك الشباك الخشبي المُتهالك نسبيًا، على ذاك الكرسي الخشبي الهزاز والذي قدَّمه له جاره أستاذ مأمون -القاطن بالدور الأول- كهدية.
يتخذ آدم وضعيته بعد أن يقوم بتشغيل راديو ترانزستور صغير على إذاعة تختص بإذاعة الأغاني العربية القديمة، واضعًا اللّفة التي سبق وأن أخذها من الحاج جميل على منضدة صغيرة أمامه، فاتحًا إياها ليَخرِج أحد شطيرتي الفول والطعمية، ويأكل وهو يستمع للراديو.
غالبَا ما ينتهي يومه بحلول العاشرة مساءً، بعد تمضيته لبعض الوقت ما بين الإستماع لمجموعة من المحطات الإذاعية المختلفة المحتويات، أو التأمل، أو باستقبال بعض الزائرين من جيرانه بالمنزل أو ساكني حارته أو الحارات المجاورة، أو في الأغلب بجميعهم معًا، ليستقيظ مع أذان الفجر ليصلي ويتلو ما تيسّر من آيات القرآن

الكريم، ثم يستمع لإذاعة القرآن الكريم إلى أن يحين موعد مغادرته اليومي.

هكذا كانت تتوالى أيامه بنفس المنوال ولا يتغير شيء إلا نادراً، فكانت حياته لا تشغلها التفاصيل والتي تمثل العبء الأكبر لغالبية البشر.. فبساطة حياته كانت ولا تزال هي مفتاح سعادته التي يفتقدها الكثير.

فطن آدم إلى ما لم يفطن إليه الكثير وهو أنه كلما قل إمتلاكه للأشياء باختلاف قيمتها ونفعها كلما زادت راحته وامتلك مزيدًا من الوقت ليجد به ذاته ويتأملها.

فكلما امتلك الإنسان شيئًا ظنًّا منه بأنه يحمل سعادته، تَيقَّن بعد فترة من استحواذه عليه بأنه زاد إلى أعبائه عبئًا سواء بضرورة العناية به أو بالحفاظ عليه، أو التوجّس خيفة أن يُحسَد عليه ومع ذلك لا يستطيع التخلي عنه لأنه تحوّل بمرور الأيام إلى أسير له وتبدَّل به الحال من ما لك لمملوك ومن مُستخدم إلى مُستَخَدَم، مع ذلك يظل الإنسان أسيرًا لتلك الشهوة التي بدلاً من أن تمنحه متعة الحياة أفقدته إياها؛ ألا وهي حب الإمتلاك.

ديسمبر.. ٢٠١٢

تمضي الأيام صاحبةً معها شهور عدة، وآدم -ذلك الشاب ذو الثامنة والثلاثين عامًا- على نفس الحال ولا تتغير الأمور بشئٍ يستحق الذكر، إلا في ذاك اليوم من فصل الشتاء، ومع هطول الأمطار بشكل كثيف مصاحبة لامتلاء السماء بغيوم مظلمة، ليبدو الصباح وكأنه اقتراب لغروب الشمس، وآدم يجلس في مكانه الصباحي المعتاد. الشيء الوحيد الذي تَغيّر هو تثبيته لمظلة بالشجرة التي يستند إليها حامية إياه من هطول الأمطار.

بعد أن فرغ من تناول الشاي الصباحي وأمسك بنايه ليعزف، لفت سمعه وقع أقدام على بُعد عدة أمتار منه، ومع تناقص أعداد المارة بسبب قسوة الطقس كانت تلك الخطوات وصوت صدى تلك الأقدام يزداد وضوحًا كلمّا اقتربت.. ويُلفت سمعه بشدة، ويبدأ بالعزف.. ولم يشعر بأنه يتخذ من صوت تلك الأقدام إيقاعًا له، وبدا وكأنَّ أوركسترا كاملة تعزف معه. واستنتج من صدى صوتها أنها مُتَّجهة صوب المستشفى العام، وظل مُتابعًا لذلك الصدى إلى أن اختفى...

في الطابق الثاني من ذاك المبنى العريق -المستشفى-.. ومن غرفة إستراحة الأطباء بها المُطلَّة على الشارع الرئيسي - والذي بدوره تطل عليه واجهة المستشفى- تقوم إسعاد الممرضة بتنظيف الغرفة وتلميع أرضيتها ومسح المنضدة الضخمة الأبعاد التي تتوسطها وإعادة ترتيب الكراسي الخشبية في أماكنها لحين وصول الأطباء؛ حتى لا تتعرض لتعنيف كبير الأطباء -دكتور أسعد-، الذي كلَّفها بأن تقوم بنظافة تلك الغرفة صباح كل يوم عمل رغم وجود عدد لا بأس به من عمال النظافة، وهو ما اعتبرته دومًا ظُلمًا فادحًا لم تنفكّ يومًا أن تشتكي منه لكل مَن حولها من أطباء وإداريين، حتى المرضى لم يُستثنوا من شكواها، ولكنها لم تستطع يومًا مواجهة أسعد باستيائها من قراره ظنًّا منها بأنه سوف يُنكِّل بها إذا ما اشتكت له من قرار ظالم من وجهة نظرها.

تحمل إسعاد أغلب السمات الشكلية والجسدية لغالبية الطبقة الفقيرة من نساء المجتمع اللاتي يقبعن في العقد الرابع من أعمارهن من بدانة الجسم نوعًا ما.. والبشرة القمحية المائلة للسُمرة.. والشعر المُجعَّد المتوسط الطول والذي طالما غطَّته بإيشارب* تتدلَّى منه شراشيب ظنًّا منها خطأً بأنه يُزيده أناقة.. ذات شفاه غليظة وأنف مُدبّب بعض الشيء، وتمتطي شبشبًا* من ذلك الطراز القديم والذي تتعمّد الزحف به على سطح الأرض ليُصدِر ذلك الصوت

---

*أيشارب: غطاء للرأس والرقبة للنساء.

*شبشب: كلمة أصلها مصري قديم، وهي من كلمة سب سويب، وتعني: مقاس القدم.

السخيف اللزج، الذي تستمتع هي به ولا تسأم من مضغ العلكة بصوت قد يسمعه مَن يبعُد عنها بضعة أمتار، ناهيك عن حرف التاء الذي يظهر بوضوح عند تحدَّثها.

كغيرها ظلَّت -ولا زالت- تعاني من تلك العُقدة الأبدية التي تأصّلت في المجتمع منذ تعميم مجانية التعليم من الحقد المُتبادل بين حاملي المؤهلات المتوسطة والعُليا.. فحملة المؤهلات المتوسطة يرون بأنفسهم.

القدرة على تحمّل أعمال حملة المؤهلات العليا، بل إنهم يمتكلون من الخبرة العملية ما يؤهِّلهم لذلك بل ما يجعلهم متفوقين عليهم، وعلى النقيض يرى الآخرون أنهم تعرضوا لأشد أنواع التنكيل وأكثرها فتكًا لاجتيازهم مراحل تعليمية مُتعددة استرقت من أعمارهم الكثير، بالإضافة لخضوعهم لتجارب مختلفة من تعاقب وزراء للتعليم، تلك التجارب التي لم يخضع لها اشد فئران التجارب بؤساً والمُحصِّلة النهائية في الراتب لا تختلف كثيرًا عن خريجي المعاهد الفنية والدبلومات.. بل إن الصنفين يحقدان على مَن اختصر الطريق ولم ينَل أي قدر من التعليم حتى لو يسيرًا وآثر أن يتعلم حرفة ما سواءًا كان باختياره أو مدفوعًا من الأهل ليصير بعد سنوات حرفي ماهر -أسطى- ويجني قدراً من المال لا بأس به في الوقت الذي لا يزال أقرانه في المرحلة الثانوية.

فظلت إسعاد تعتقد بداخلها أنها أفضل من الأطباء، وكانت تتباهى بأنها تقوم بإعطاء الحُقن العضليّة بخفة يد لا يمتلكها أيّ طبيب

مهما بلغت خبرته و لم يتمو لعلمها أنَّ مهام الطبيب لا حصر لها وليس منها إعطاء الحقن.

لم يقطع استغراقها في العمل إلا صوت طرقات على باب الغرفة، فتتمتم بضجر:

- مش وقته خالص، عاوزة أخلص من القرف بتاع كل يوم ده.. والله زهقت، لولا الحَوجة كان زماني طفشت.

ثم تصيح بعد سماعها معاودة الطرقات مُجددًا:

- ادخل ياللي بتخبَط وحاسب لا تتزحلق علشان الأرض لسه مبلولة.. مش ناقصين مصيبة على الصبح.

يُفتَح الباب وتدخل فتاة تبدو على مشارف الثلاثين من عمرها، ذات شعر كستنائي بالكاد يُلامس كتفيها، يضيء بسناء وضياء، وذات ملامح رقيقة مرسومة بدقة تكسوها القليل من مستحضرات التجميل، وبشرة فاتحة نسبيًا ذات صفاء ونقاء، وطول متوسط وخصر نحيف بعض الشيء، كانت ترتدي ملابس رسمية وحذاء ذو كعب متوسط لتبدو أطول للناظر ممّا هي عليه بالفعل، وتوجِّه حديثها لإسعاد بإبتسامة يغلب عليها التصَنَّع:

- صباح الخير.

ترد إسعاد بعدم إكتراث - كعادتِها- وهي تواصل عملها:

- صباح النور.. خير؟

لم تنتظر إسعاد إجابة وتُردف:

- لو عاوزة حد من الدكاترة.. لسه محدش وصل.

تجيب الفتاة بعد أن رمقت إسعاد بنظرة ضجر واضحة:

- أنا الدكتورة ميادة.. دكتورة التخدير، وجاية أستلم شغلي.

تلتفت إسعاد إليها رامقة إياها بنظرة من أعلى لأسفل وترد:

- أهلًا يا دكتورة.. هتطلعي شئون الأفراد في الدور التالت تملي كام إستمارة، وهيقولولك هتعملي إيه، ويكون كمان دكتور أسعد وصل.
- مين دكتور أسعد؟
- كبير الدكاترة هنا.. المدير يعني، والنبي يا أستاذة.. أقصد يا دكتورة.. الشمسيّة إلّلي إنتي ماسكاها وعمّالة تنقط ميه دي.. إبعديها شوية لأن ضهري إتقطم من مسح البلاط.

تستدير ميّادة مغادرة الغرفة مُغلِقة الباب خلفها متجهةً نحو شئون الأفراد، وإسعاد بالداخل تُكمِل عملها وهي تُتَمتِم مُتهكِّمة: "أصلْ المشرحة ناقصة قُتلى.. ما علينا".

بعد مُضيّ قرابة الساعة تعود ميادة مُجَدداً لغرفة إستراحة الأطباء وقد امتلأت عن آخرها بأطباء مُتعدِّدي التخصصات، بعضهم ذكور والأكثرية نساء من أعمار مختلفة والكل يتحدث في آن واحد، بالكاد يستطيع أحدهم سماع الآخر من شدة الضجيج، بينما يتلو الشيخ المرحوم مصطفى إسماعيل ما تيسر من سورة البقرة من خلال موجات اذاعة القرآن الكريم و الذي لا يستمع له أحد من شدة انهماكهم سواء بالحديث أو بالافطار والمشهد لا يخلو من توافد بعض المرضى الذين يودّون التواصل مع أحد الأطباء بشكل مُنفرِد دون أن يتحمّلوا التكلفة الزهيدة للفحص، أو رغبة بتجاوز فترات الإنتظار التي قد تصل لساعتين أو ثلاث حتى يحين دور فحصهم، وآخرون قد أتوا باكرًا لفك طلاسم روشتة قد كتبها لهم أحد الأطباء ولم يستطع الصيدلي قراءتها.

بمشقَّة استطاعت ميّادة أن تشقّ طريقها إلى داخل الغرفة، ولم يلتفت أحد لدخولها غير الدكتور أسعد الذي تَميّز دومًا بنظرته الثاقبة وقوة ملاحظته، وقامته الممشوقة، ووجهه المستطيل ذو البشرة القميحة الداكنة، وجبينه المُسطَّح، وشعر قوقازي يهتم دومًا بحسن مظهره وتصفيفه.

التفاتته لم تأخذ منه أكثر من ثانية تحوّل بعدها بنظره عن ميادة حتى لا يلاحظه أحد وهو يرمقها، انتظرت ميادة قليلًا مُتأمِّلة المشهد أمامها قبل أن تُربِّت على كتف إحداهن وتهمس في أذنها:

- لو تسمحي.

ترد السيدة بدورها دون أن تحمل عناء الإلتفات لها:

- نعم.. يا ريت تعلِّي صوتك شويّة، مش سامعة الدوشة إللي إحنا فيها؟
- دكتور أسعد.. ألاقيه فين؟

تجيب السيدة بعد أن التفتت نصف إلتفافة:

- وعاوزة الدكتور في إيه؟! الدكتور ما بيتكلمش مع مرضى هنا. لو عاوزاه في شكوى أو طلب هيبقى موجود في مكتبه في الدور الأول بعد نص ساعة و...

تقاطعها ميادة:

- أنا دكتورة ميادة.. وجاية أستلم شغلي.

وإذا بالسيدة تلتفت بشكل كامل وتقف مُتحدثة:

- معلش يا دكتورة، أديكي شايفة السيرك إللي إحنا فيه، والله ما بقيت أعرف أفرّق الدكتور من العيّان، من الإداري، من بتاع الشاي. أنا دكتورة منى إخصائية النسا.
- أهلًا وسهلًا.
- دكتور أسعد.. الطويل الرخم إللي ملزّق شعره زيّ (رشدي أباظة) و شايف نفسه شويّتين ده، هناك أهو.. واقف عند طرف

التربيزة..

ثم يعلو صوتها موجهة حديثها لأسعد:

- دكتور أسعد.. يا دكتور أسعد، دكتورة ميادة.. دكتورة جديدة معانا..

وما إن أتمَّت منى مخاطبته، كانت ميادة تقف مواجهة لأسعد رافعة يدها لتصافحه قائلة:

- صباح الخير.. دكتورة ميادة.. أخصائية التخدير.

يردّ وهو لا يزال مُصافحًا إياها:

- صباح الخير يا ميادة.. ملفَّك وصل المستشفى الأسبوع إللي فات.
- تمام.
- هتروحي تخلَّصي ورق إستلام العمل من شئون العاملين في الدور التالت، وبعد ساعة تجيلي المكتب.

(قالها وهو يبعد يده عنها).

وما إن تُهِمّ ميّادة بمحاولة شرح أنها بالفعل قد أنهت الإجراءات حتى يَشيح بوجهه عنها موجِّهًا حديثه لكل مَن في الغرفة بنبرة جهورية تغلب عليها النبرة الآمرة:

- يلّا يا حضرات الدكاترة.. كل واحد يتفضل على عيادته وما

أشوفش حد هنا إلا في وقت راحته.

ثم يستدير موجَهًا حديثه لإسعاد في زاوية الغرفة:

- يا إسعاد، إنتي ومعاكي الفراشين.. الأوضة عاوزها بِتُبرقْ من السقف للأرض.. مفهوم؟

تومئ إسعاد برأسها بالموافقة مع إبتسامة صفراء وهي تتمتم: "ربنا ياخدك ونرتاح منك ومن رزالتك يا ظالم يا مفتري..".

يمضي أسعد دون الإلتفات لميادة أو لغيرها في طريقه مغادرًا الغرفة ومن خلفه جميع مَن كان بالغرفة واحد تلو الآخر، لتخلو تمامًا إلا من ميادة ومنى وإسعاد وفردين من طاقم التمريض وعامل التنظيف، وسط فوضى عارمة من الكراسي والأوراق المُلقاة على الأرض، وأكواب الشاي الفارغة على المنضدة الكبيرة التي تتوسّط الغرفة. و لا يقطع ذاك الهدوء إلا صوت منى مُحدِّثة ميادة:

- اقعدي يا دكتورة.. واقفة ليه؟!

تقترب ميادة بضعة خطوات إلى أن تصل بالقرب من الدكتورة مُنى وتجلس على كرسي خشبي بجانبها وتتساءل:

- إيه الدوشة اللّي كانت هنا دي؟! وإيه الناس دول كلهم؟ وإللي اسمه دكتور أسعد ماله معووج كده وعلى إيه؟! بصراحة كنت

فاكرة الدنيا غير كده خالص.

تجيب مُنى بإبتسامة بائسة:

- هو ده النظام هنا.. هنعمل إيه.. مهما كان الحمدلله أحسن من غيرنا يا دكتورة. بالمناسبة إنتي تَخصّصِك إيه؟
- تخدير.

تُعقِّب منى بنبرة أقرب للصراخ وكأنها رأت شبحًا يقفز أمامها:

- تخدير! يعني من قلِّتهُم؟! ما كانوش جابولنا حد نسا يشيل عننا شويّة، والله طالع عنينا و الستات العيِّانة ما بتخلصش..

قالتها وتصمت فجأة، منُتبهة أن حديثها لا يتناسب مع موقف إستقبال طبيب جديد أيّا كان تخصصه، وخاصة بعد أن تغيّرت ملامح ميّادة بعض الشيء. لتِعاود الحديث مُجَددًا:

- معلش يا دكتورة والله ما أقصد حاجة، أنا بفضفض معاكي من الهم بس. أهو الكلام نسّانا.. تشربي إيه؟

ولم تنتظر مني إجابتها ملُتفتة إلى إسعاد:

- إسعاد، إندهي على حد من البوفيه يجيب شاي للدكتورة ميادة.

ثم تلتفت صوب ميادة مجددًا قائلة :

- معلش.. مفيش غير شايّ ومن غير سكر...

وتُردف مبتسمة:

- بس ما تقلقيش، أنا معايا باكيتات سكر زيادة في شنطتي.

أثناء توجه إسعاد للذهاب إلى البوفيه تتوقف عند منى قائلة:

- بذمّتك يا دكتورة.. وحياة عيالك.. إللي بيتعمل فيّا ده حلال؟! أنا ما بقتش عارفة أنا ممرضة ولّا فرّاشة ولّا إيه؟! هو مفيش غير إسعاد في المستشفى المنيّل ده! دكتور أسعد من ناحية وإنتم من ناحية، والعيّانين من ناحية تالتة. ده أنا أقدم ممرضة هنا. والله أنا قرفت قرف السنين. وعموماً حاضر يا دكتورة، هروح أنده بتاع الشاي وآجي أكمّل مسح وترتيب. حسبي الله ونعم الوكيل في كل ظالم ومفتري..

وتُكمل سيرها بعدما أدركت عدم جدوى حديثها إلى أن اختفت عن مرمى نظر مُنى وميادة، فتردف مُنى حوارها مع زميلتها حديثة العهد:

- غلبانة إسعاد، وفعلًا الكُلّ حاطط عليها، وبتجري على أربع بنات بعد وفاة جوزها في حادثة على الطريق الدائري. بس هنعمل إيه، دكتور أسعد ربنا يهديه هو إللي عمل فيها كده.
- ما حدش حاول يتكلم معاه علشان يرحمها شوية؟

- ما أفتكرش، أسعد صعب شويتين وكل واحد فيه إللي فيه يا دكتورة.

ثم صمتت لثوان في محاولة منها لتغيير دفّة الحوار الذي بدا ثقيلًا على ميادة وخاصة أنها ما زالت خلال سويعاتها الأولى بعملها الجديد، ثم تردف قائلة:

- سيبك.. سيبك.. المهم إنتي منوّرانا، قوليلي إنتي دفعة كام ومنقولة من فين؟

وتستطرد مُتهكّمة:

- وإيه إللي رماكي على المُرّ؟
- المُرّ!!
- أيوة، مُرّ وعَلقم كمان. بالمناسبة.. إحنا مسمّيين المستشفى هنا جوانتنامو..
- جوانتنامو حتة واحدة؟!
- أيوة.. أومّال حتتين يعني! أصل الدكاترة هنا بتتعذب، تحسي إنهم جايينا هنا نتعاقب، زمايلنا الدكاترة في المستشفيات التانية مش بيروحوا أصلًا وبيقبضوا آخر الشهر. ساعات بحس إن الحاجة الوحيدة إللي ناقصة هي قضبان فولاذ وسلاسل حديد في رجلينا، وبالمرة يلَبسونا بيجامات زرقا...

و تُردِف ساخرة:

- أو حمرا.

تبتسم ميادة قائلة:

- الله يبشَّرِك بالخير.

تبتلع ريقها وتُكمِل:

- أنا ميادة النبوي دفعة ٢٠٠٨ ومش منقولة من مكان تاني. كنت بشتغل بشكل مؤقت في الجامعة مساعدة لأستاذ ولمّا خلصت دكتوراة...

تقطع مُنى حديثها:

- دكتوراة.. معاكي دكتوراة!.. دكتوراة وجاية تشتغلي هنا؟ إنتي مجنونة يا بنتي!.
- أبدًا.. بس لمّا قررت أسيب الجامعة وأقدم في مسابقة التعيين بتاعة وزارة الصحة لقيت إن ده أنسب مكان لأنه خطوتين من البيت.

بعد لحظات قضتها مُنى وهي تمتم:

- ميادة النبوي.. ميّادة النبوي.

ثم تصيح:

- ما تقوليش إنك بنت دكتور قاسم النبوي أشهر جرّاح رمد في مصر.
- أيوة بنته.
- لا، ده إنتي حكايتك حكاية.
- لا حكاية ولا حكايات، بس يا ريت محدش يعرف إني بنت دكتور قاسم، وسيبك مني شويّة.. ما قومتيش ليه مع باقي الدكاترة؟
- كنت في أجازة وضع وآخر يوم فيها النهاردة، والمفروض أستلم شغلي بكرة، وجيت للدكتور أسعد أحاول آخد أسبوع أو إتنين أجازة أظبّط فيهم أموري شويّة.

تقطع ميّادة حديثها قائلة:

- هو ده صوت موسيقى ولّا أنا بيتهيألي؟ هو في حد مشغّل أغاني جنبنا ولّا ده حد ناسي موبايله؟
- ده الدكتور بيعزِف.
- دكتور بيعزف.. نعم! وهنا في المستشفى!
- تعالي بس.. تعالي.

تُمسك بيدها متجهة بها نحو الشباك الكبير الذي يتوسط الغرفة

وتُشير بسبّابتها تجاه آدم قائلة:

- أهو يا ستي علشان تصدَّقي.
- ده دكتور؟!
- لأ طبعًا، دكتور إيه بس! من أول ما اتنقلت هنا من تلت سنين والكل بيقول عليه دكتور ومحدش يعرف له اسم. بس بصراحة بيعزف حلو أوي. تحسِّي كأن الناي بتاعه بيغَنِّي. والله يا دكتورة ساعات كتير بسرح مع عزفه، الناي بتاعه بيودِّيني في دنيا تانية بعيدة.. بطير معاه لأبعد سما، ولمّا أفوق بسقط على الأرض تاني على جدور رقبتي.
- حرام عليكي قلبي هيقف من الضحك.
- لازم نضحك وإلا هنطقّ وننفجر.
- على رأيك. بس غريبة حكاية الدكتور الشحّات دي، حتى الشحات خليناه دكتور! وكمان بيقلد الأجانب وحاطط قُدَّامه صندوق الناس ترميله فيه الفلوس؟! وبعدين عزفه عادي يعني.. تلاقيه حافظ له كام أغنية وخلاص.. وإيه نضَّارة الشمس إللّي لابسها في عز المطر دي؟!
- ده أعمى يا دكتورة.. مش شايفة العصاية إللي جنبه؟

تعقب ميادة بعد إبتسامة مُتهكِّمة:

- عصاية ونضارة.. واضح ان دول بقوا أدوات النصب اليومين

دول، نُص الشحاتين إللي عامل فيها أعرج وإيده مقطوعة أو أعمى وهُمّ صحتهم أحسن مننا ميت مرة. كلهم شويّة كدابين.. أنا شخصياَ ما بقتش بصدق حد منهم.. وإللي تلاقيه واقف بروشتة دوا وكل واحد يشوفه يقول له مش معايا فلوس أجيب الدوا. ده الحال وصل بإن الناس بتقف في إشارات المرور ومعلّقة محلول علشان تِلمّ شوية فلوس.

- يا شيخه حرام عليكي. وبعدين كفاية بقى رغي.. يا دوب نلحق دكتور أسعد.. ربنا يِحنِّن قلبه علينا.

ترد ميادة بتهكُّم:

- أنا برضو إللي كفاية رغي؟!

ثم تمضيان في طريقهما إلى مكتب أسعد وقد تعالى صوت ضحكاتهما ولا تزال ميادة تسترق السمع لتلك النغمات السابحة عبر الأثير.

بينما تطرق ميادة باب غرفة دكتور أسعد بنقرات خفيفة متتالية، تسمع صوت من الداخل يرد:

- ادخل.

تفتح الباب بهدوء.. تلج بخطوات ثابتة مُتَّجهة صوب مكتبه قائلة

وهي تهمّ بالجلوس:

- صباح الخير.

لم يرد أسعد تحية الصباح بل وتمادى لِمَا هو أبعد من ذلك بعد أن رمقها بنظرة حادة ويقول:

- ما قولتش اقعدي.

تتمالك ميادة نفسها بسرعة البرق - من وَقْع كلمات أسعد عليها- حرصًا منها ألَّا يلاحظ إرتباكها لمنعها من الجلوس دون إستئذان، وتستأنف جلوسها متجاهلة ما قاله وتقول:

- أفتكر شئون العاملين بعتتلك ملفي.

يرمقها مُجددًا بنظرته الثاقبة والتي تبدَّلت من حدة لغضب ويمد يده مُلتقطاً الهاتف مُحادثًا سكرتيرته:

- عاوز ملف الدكتورة الجديدة.

ويتظاهر بأنه لا يتذكر اسم ميادة ويلتفت إليها:

- قولتيلي اسمك إيه؟

- ميار النبوي.

ثم يُكمِل حديثه عبر الهاتف:

- ميادة النبوي يا إيناس.

قالها ووضع سماعة الهاتف ويلتفت مُجَدداً لميّادة والتي تبادره قائلة بدهاء:

- آسفه اتلخبطت و قلتلك ميار بدل ميّادة.. ميار التوأم بتاعي.

بالطبع لم يكن لها أخت ولكنها بدهاء الأنثى أرادت أن تُثبت شيئًا ما لنفسها.. وقد تحقّق.

ينجح في ضبط النفس بصعوبة بعدما أدرك أنها اكتشفت أنه كان على علم باسمها الحقيقي ويستطرد حديثه:

- حصل خير.

تدخل إيناس -سكرتيرته- بملف ميادة الوظيفي وتضعه أمام أسعد وتنصرف بهدوء، ويبدأ بتَصفُّح أوراق الملف ويتمتم بصوت مسموع:

- ميّادة النبوي.. دفعة ٢٠٠٨.. ماجستير تخدير.. دكتوراة في تخدير الحالات الحرجة.. زمالة الكلية البريطانية في علاج الألم.

ثم يوجّه حديثه إليها مُندهشًا:

- إيه كل ده؟! وعملتيه إمتى؟!

ثم يتدارك نفسه في محاولة منه للحفاظ على رباطة جأشه،

مُستطردا:

- عمومًا، كويس.. كويس، واضح إن هيبقى ليكي مستقبل مش بطّال يا دكتورة.

ويُردف وهو يداعب ذقنه بإبهامه وسبّابته:

- المستشفى هنا زيّ ما إنتي عارفة مستشفى حكومي، وفي الفترة الأخيرة بدأت أستحدث أقسام ما كانتش موجودة للأسف قبل كده، لسببين؛ أولهم نساعد الغلابة.. ومن ناحية تانية نزوّد دخل المستشفى وعلشان كده فكرت في عيادة لعلاج الألم، وزيّ ما إنتي عارفة ده تخصّص انتشر في الدنيا كلها، وفعلًا طلبت من الوزارة ووافقت على الفكرة وعلشان كده إنتي هنا، بالإضافة طبعًا لتخصّصك الأساسي إللي هو التخدير، لما تكون في عملية.. يا ترى قد المسئولية دي؟
- أكيد وإلا ما كنتش أبقى قاعدة قدامك دلوقتي..
- عمومًا، إحنا مش بنعمل هنا غير عمليات محدودة جدًا وعلى فترات مش قريّبة..

تلاحظ ميادة إشتعال غضب مكتوم بداخله بعد التقاط أذنيها لصوت إهتزاز قدميه، لعدم استخدامها لألفاظ التبجيل مثل حضرتك أو سيادتك وهذا ما أرادته تمامًا كوسيلة لردّ إعتبارها بعد تعرّضها للإحراج بسبب تعامله معها كتلميذة وناظر للمدرسة.

يٍغلق ملفها بعد أن تصفحه كاملًا ويستطرد:

- من بكرة هتبتدي شغلك.. من تمانية الصبح لاتنين الضهر ويومين في الاسبوع هتقعدي لستة بالليل، حسب الجدول إللي بيحدِّ دُه رئيس قسم التخدير بالمستشفى. التأخير ممنوع. وتمانية الصبح يعني تمانية.. لو اتأخرتي يٍستحسن ما تجيش لأنها هتتحسبلك أجازة عارضة. ليكي ساعة راحة كل يوم بالتنسيق مع زمايلك في القسم. أيّ حاجة تانية عاوزة تعرفيها؟
- لا ما أفتكرش..

تقولها وهي تنهض وتُكمل:

- شكرَا يا دكتور.

تستدير متجهة نحو باب الغرفة للخروج.. بينما يتابع أسعد سيرها إلى أن عرجت خارج الغرفة وأغلقت الباب خلفها.
بينما هي بالخارج وجدتْ منى بانتظار دورها للدخول إليه فتبادرها بالسؤال:

- عملتي إيه معاه؟ متوحش صح؟
- لا أبدًا.. ده غلبان خالص وعلى قده.

وتصمت للحظة وتستطرد:

- على قدَّه بزيادة.. ربنا يوفقك وتعرفي تاخدي منه الأجازة.

ثم تمضي...

تمضي ميادة في طريقها للخروج من المستشفى. ولا تزال الأمطار تهطل ولكن بحدَّة أقل من الصباح، ولا تزال نغمات ناي آدم تدوي في الأثير، وإذا به ينتبه لنفس صوت الأقدام الذي سمعه في الصباح، وإذا به مُجَدداً يعزف مُتخذًا وقع أقدامها إيقاع له.
وهنا يصيح عم نبيل:

- آه يا دكتور.. قَلبتْ علينا المواجع.. دندنْ كمان وسمّعنا.. الله يفتح عليك. مين عاوز يتدفي بشاي عم نبيل.. بسكوت.. حلويات.. وللغلبان ببلاش.

تُكمِل ميّادة سيرها رامقة عازف النايّ بنظرات غير مباشرة، وتدور بعينيها لتستطلع منطقة عملها الجديدة وأذنها مُصغية تمامًا لأنين الناي إلى أن ابتعدت عن المكان مُتَّجِهة صوب بيتها...

كما هي القاهرة دائمًا.. تتداخل الأحياء الراقية مع ما دونها، فتجد العمارات الشاهقة المُطلة على النيل، والشوارع الفارهة، بينما وعلى بُعد بضعة أمتار خلفها، تجد العشوائيات بكل توحّشها، وكأنَّ الزمن عاد بك للماضي مئات السنين بمجرد مرورك بها، أو حتى بمجرد رؤ يتك لها من على بُعدْ.

تقطن ميادة بحي الزمالك.. تلك الجزيّرة الجذّابة، التي طالها الكثير من التمدُن والحداثة.. مع احتفاظها بالكثير من رونق ونضارة الماضي.

تدخل ميادة تلك العمارة الشاهقة حيث كانت تقطن بالطابق الرابع، حيث الرؤية الواضحة للنيل. وسرعان ما يهبّ حارس العقار مُنتفضًا بمجرد أن رآها ليتفح لها باب المصعد الكهربائي، مُنْحَنيَا برأسه قليلًا، قائلًا:

- حمد الله على السلامة يا دكتورة.
- الله يسلمك يا عم أحمد.. هو إنت مش هتبطّل تقوم تقف لمّا تشوفني؟ إنت مربيني يا راجل يا عجوز.
- يا بنتي أنا بقف لك حب ومَعزّة. والله ربنا يعلم غلاوتك عندي وغلاوة الدكتور الكبير ربنا
يدِّيله الصحة. خيره عليا وعلى عيالي ولحم كتافي من خيره.
- ما تقولش كده.. الخير خير ربنا وإحنا كلنا مجرد أسباب مش أكتر. ما تْكَبّرْش الموضوع يا راجل يا طيب.

- بنت أصول يا دكتورة، وإللي زيّك يا بنتي بقى عملة نادرة اليومين دول.

ثم يُغلق باب المصعد بعد أن ضغط على زر الطابق الرابع.

تفتح ميادة باب شقتها لتجد والدها -الدكتور النبوي- جالسًا في البهو الرئيسي على ذاك المقعد الوثير -الذي اقتناه من أحد المزادات العالمية- وفي أركانه المختلفة تقبع عدد لا بأس به من الإكسسوارات الضخمة كالشمعدانات والأباجورات والتي تبدو كالحرس الملكي الذي انتشر بجنبات المكان واللاتي وُزِّعن بحرفيّة شديدة، وعدد لا بأس به من السجاد العجمي ذو النقوش والألوان التي تتناسق مع ألوان الأرائك والستائر الباتو* ومن أسفلها ستائر من قماش الموسلين* لتمنحها المزيد من الفخامة والأناقة. ناهيك عن الأضواء الخفيّة بالسقف، باعثة دفئًا ونعومة لكامل البهو.

يقرأ كعادته مواجهًا الشرفة المُطلة على النيل، ذلك الرجل الذي على مشارف العقد السادس من عمره ذو الوجه الدائري الذي اعتلاه شعر أملس خفيف فضِّي اللون، وذو جبين عالي ومستدير يقبع أسفله حاجبين متقاربين، وأنف مستقيم وأذن طويلة، وبمجرد أن يلاحظ وصولها يبادرها متسائلًا:

- إيه يا دودو اتأخرتي ليه؟ وعاملة إيه في الجو الصعب ده؟ استلمتي شغلك الجديد؟....

---

*ستائر باتو: ستائر أفقية تتحرك من أسفل لأعلى أو العكس وتتكوّن من قطعة واحدة من القماش.

*قماش موسلين: قماش منسوج بمغزل يدوي من أجود أنواع القطن ودون مواد كميائية.

تقاطعه مُندهشة:

- كل دي أسئلة يا بابتي يا جميل؟!..

بعد لحظة صمت مُستغلة إياها في التقاط انفاسها، تُكمل:

- أولاً أنا ما اتأخرتش.. أنا جيت مشي من المستشفى ويمكن ده خد مني شوية وقت، واستلمت شغلي الجديد وكله تمام. ثانياَ حضرتك بتسألني عن الجو وإنت قاعد وفاتح البلكونة وتيار الهوا كله جاي عليك. ما ينفعش كده يا دكتور.. هيجيلك برد.
- إنتي عارفة إدماني لمنظر النيل، وما تقلقيش عليا، لابس كويس. فاكرة والدتك الله يرحمها لمّا كان الشتا يدخل علينا وتفضل تفرك في البيت من السقعة؟ الله يرحمها ما حسِّتش بقيمتها الكبيرة غير لمّا سابتني.
- الله يرحمها ويحسن إليها.

تضع حقيبتها على منضدة قريبة منها، وتسأله في محاولة منها لتغيير نكهة الحديث الذي يبعث في النفس الحزن والحنين:

- بقولك إيه، اتغديت؟
- وهتغدى من غيرك إزاي؟!
- دقايق وناكل.. أنا مجهِّزة الأكل من بلِّيل.. هسخَّنه وأعملِّك شوية سلطة طازة، وناكل علطول.

- قبل الأكل عاوز أطَّمن على أخوكي.. اتصل بيكي؟
- لا والله.. وحاولت أكلمه وأنا في الطريق ما ردِّش. هتلاقيه مشغول.. الغُربة صعبة يا بابا، ما حضرتك أكيد عارف.
- عارف.. بس إزاي ما يسألش على أهله بالأسبوع والاتنين؟ .. ده يرضي ربنا؟!
- الغايب حجته معاه. أحمد ابن حلال وحضرتك عارفُه كويس، هو بس أكيد أحواله متلخبطة وخصوصًا إنه لسه في أول تلت شهور.. ما تقلقش إنت عليه.. هيبقى كويس.. هروح أحضّر الأكل.

تذهب ميادة وتترك الرجل شارداً في التفكير في وحدته خاصة بعد وفاة زوجته ورفيقة دربه بسرطان الرئة، وسفر ابنه أحمد للعمل بالبحرين رغم محاولاته الحثيثة بإثناءه عن أن يغترب، خاصة أنهم لا يحتاجون للمال ولكن الشاب فضَّل الإعتماد على نفسه من ناحية.. و لعدم قدرته على التأقلُم مع الحياة المصرية الصعبة خاصة في السنوات الأخيرة بعد قيام ثورة يناير من ناحية أخرى.

أيضًا تذكر كيف حاول مراراً وتكراراً مع ميادة ليَثنيها عن رغبتها في العمل الحكومي، خاصة مع سهولة الإلتحاق بالعمل بأحد المستشفيات الخاصة الكبرى لما تحمله من مؤهلات، أو من خلال علاقات أبيها القوية.

دكتور قاسم النبوي.. هو أحد أستاذة كلية الطب جامعة القاهرة وأحد أشهر أعلامها وكان واحدًا من فريق الأطباء الخاص بالرئيس الأسبق مبارك، ويمتلك مُجمع طبي خاص بأمراض وجراحات العيون، ويُعدّ من أشهر الأطباء في هذا المجال ليس فقط محليًا بل عالميًا أيضًا.

مع دِنوّ عُمرِه من الستين عامًا فضّل أن يعمل فقط بالجامعة يومين بالأسبوع وفي مجمعه الطبي الخاص ساعتين يوميًا أو في حالة طلبه لوجود حالة نادرة أو خطيرة ويتفرّغ باقي اليوم للقراءة والترجّل على كورنيش النيل ممّا ساعده على الحفاظ على رشاقة قوامه ولولا الشيب الفضيّ اللون الذي غطّى رأسه بالكامل لبدا أصغر سنًّا مما هو عليه خاصة وأنه ما زال يتمتع ببشرة نضرة تكسوها بعض الحُمرة..

ظل غارقًا في شروده إلى أن سمع صوت ميادة وهي تقول:

- الغدا جاهز يا حضرة بابا الدكتور...

يجلسان سويًا على المنضدة المخصصة للطعام وبينما يتناولان غدائهما، تقص له ميادة أحداث يوم عملها الأول.

ومن ينظر إليهما من بعيد قد يظن أنهما صديقين يتحدثان لا أب وابنته وظلا هكذا إلى أن انتهيا من طعامهما...

ينتهي وقت آدم و يهمّ بالمغادرة لبيته، و لا يستطيع مقاومة تذكّر صدى تلك الخطوات و لا يعلم لماذا يسيطر عليه هذا التفكير. ويفشل في كل محاولة لإقصاء ذلك الخاطر عنه إلى أن يخونه ثباته ويقع له أسيراَ.. تراوده الأسئلة ويقترح إجابتها "تُرى لمَن تكون تلك الخطوات؟ وهل ستعود غدًا مجددًا أم أنها لشخص غريب ولن يعود ثانية؟". ظل هكذا ُمبحراَ بين سؤال يعقبه تساؤل إلى أن يصل لحارته..

أثناء صعوده على دَرج منزله، يفتح أستاذ مأمون باب شقته ويبادره قائلًا:

- كنت فين يا آدم؟ مستنيك بقالي فترة طويلة.
- أنا وصلت في ميعاد كل يوم.
- معلش يا ابني يمكن الزهق خلاني أحس إن الوقت تقيل وطويل.. طويل أوي يا ابني.
- مالك يا أستاذ مأمون؟ صوتك مش عاجبني، عيان ولّا في حاجة حصلت؟
- ما تيجي تتفضل تقعد معايا شوية.
- عنيا.. طبعًا بس على شرط.
- تؤمر..
- تعمل لي كوباية شاي بتاعة أستاذ مأمون.

يبتسم مأمون بينما يمسك بذراع آدم ليعبر به باب الشقة ليلجا داخلها.
أعدَّ مأمون قدحين من الشاي الساخن وبينما هما يتناولاه يتحدث آدم:

- خير يا راجل يا طيب؟
- مش عارف.. مش عارف أشرح إللي جوايا..
- حا ول وأنا معاك للصبح.. فاضي زيّ ما إنت عارف.
- الوحدة يا ابني قاتلاني وحاسس زيّ ما أكون في آخر أيامي وخايف أموت وأنا لوحدي ومحدش يعرف غير بعدها بكام يوم بعد ما تكون ريحتى طلعت والدود ابتدى ياكل في لحمي..
- إيه بس الأفكار دي! وبعدين إحنا روحنا فين؟ ده إحنا أكتر من الأهل.
- ربنا يديم المعروف يا دكتور، تعرف كمان أنا خايف من مين أوي؟
- مين؟
- من ربنا.. هقابله إزايّ وأنا بقالي أكتر من ١٥ سنة ما ركعتهاش.. تفتكر هيسامحني؟
- ربنا خلقنا وعارف ضعفنا، ودايماً مستني خطوة مننا علشان يسامحنا ويرحمنا. ربنا كبير أوي أوي يا عم مأمون.
- تفتكر لسه في وقت؟
- لو لسه فاضل دقيقة واحدة في عُمرنا، يبقى لسه في وقت وأمل.
- يعني ما أخافش وأطمن؟
- طبعًا.. وإحنا فيها، وعلى رأي المثل الصيني "أن تبدأ متاخرَا خير

من ألا تبدأ أبدًا"، وربنا أكبر و أحن من إنه يعذِّبنا وخصوصًا لو رجعنا له ندمانين.. المهم نبتدي ونتوكل على الله.

- تفتكر هقدر؟ والله أنا مكسوف من ربنا أوي.

- هتقدر طبعًا وأ نا عن نفسي كل يوم الفجر هصحِّيك ونصلي مع بعض وناخد ثواب الجماعة.

- بجد يا ابني؟

- بجد يا عم مأمون.

- طيب والوحدة أعمل فيها إيه؟

- سهلة برضو.

- إزاي.. هتجوزني؟!

بعد ضحكات تستحوذ عليهما، يقول آدم:

- يا ريت كان عندي عروسة ما كنتش بخلت بيها عليك، إنما في حل أسهل من كده.. الواد علي..
- علي؟! ماله؟
- زيّ ما أنت عارف أنا بذاكر معاه دروسه وبشرح له، هخليه يعدي عليك كل يوم تحلّ معاه الواجب إللي بدِّيهوله.. منها تساعده ومنها يونِّسك شوية وقت مش بطّالين.
- ربنا يا ابني يسعد أيامك ويريّح بالك.. بس أنا ليّا طلب..
- أؤمرني أمر.
- وصيتي لك.. أنا شايل في الدولاب إللي جوة ٢٠ ألف جنيه كنت

سايبهم للزمن وزيّ ما إنت عارف أنا ماليش حد ولا حتى عيَل ولا تيَل.. لما أقابل رب كريم، تاخد القرشين وتعمل حاجة كده زيّ مائدة رحمن كبيرة وخلّي كل حد جعان وغلبان ياكل لحد ما يشبع، الغلابة كتير أوي يا ابني.. أهو يمكن الحي القيوم يعفو عني بسبب إن حد بطنه بطلت تقرصه من الجوع بسببي.

- أنا موافق وجدًا، وطبعًا ده بعد عُمر طويل.
- شكرَا يا آدم.
- على إيه بس؟ ولو احتجت أي حاجة نادي عليا وهبقى عندك في ثواني...

ثم يستطرد مُتهكِماً:

- و على فكرة يا استاذنا مع أني ضرير و ساكن في آخر دور و مش بمشي غير بالعصاية إنما رهوان..لدرجة اني بفكر ادخل سبق ال ١٠٠ متر بتاع الاولمبياد..

ما ان ينتهي آدم من مُزحته حتى يتعالى صوت ضحكات استاذ مأمون حتى كادت ان تبلغ عنان السماء.. تلك الضحكات التي غابت عنه كثيراً..

ثم يمضي آدم صاعدًا لمسكنه الخشبي.

الصباح التالي..

يأخذ آدم وضعيته المُعتادة، ويُحضِر له عم نبيل كوب الشاي اليومي الساخن ويُلاحِظ شحوب وجه آدم فيسأله:

- مالك يا دكتور النهاردة؟ إنت عيان ولّا إيه ؟!
- لا أبدًا.. ما نمتش كويس.. تقريبًا طول الليل قلقان..
- خير؟ في عندك مشكلة أو حاجة قالقاك؟
- لا يا عم نبيل.. الدنيا تمام.. الشاي المظبوط بتاعك هيفوّقَني. ما تقلقش أنا كويس..
- ما أقلقش إزاي يا دكتور؟ إنت مش عارف إنك ابني إللي ما خلفتوش؟
- ربنا يديم المعروف يا راجل يا طيب.

لم يكن عم نبيل يعلم بأن آدم لا يزال مُنشغلًا بسحر تلك الخطوات وينتابه الفضول بشدة ليعرف إذا ما كان سيسمعها مجددًا أم لا.
لم يبدأ بالعزف في موعده المعتاد منذ سنوات مما أثار دهشة عم نبيل فصاح:

- يلّا يا دكتور.. مش هتطربنا ولّا إيه زيّ كل يوم؟! أجيبلك شاي تاني؟

يرد آدم بأعلى صوته حتى يسمعه، حيث لم يمتلك تلك الحنجرة ذات الأحبال الحديدية كعم نبيل:

- يا ريت.. أنا فعلًا محتاج واحد كمان..

يُحضِر له عم نبيل قدح الشاي ويقول وهو يناوله إياه:

- إنت غريب النهاردة.. لعله خير يا إبني. بقولك إيه.. خطوتين وندخل المستشفى نشوف أيّ حد موجود يكتبلك برشامتين يظبطوك؟

- الشاي بتاعك أحسن من ألف برشامة.. شويّة وهبقى كويس.. أكيد هبقى كويس إن شاء الله.

وما هي إلا دقائق معدودة وإذا بأذن آدم تنتبه بشدة لصوت خطوات قادمة. لم يختلط الأمر عليه ولو للحظة.. فقد كانت كل خلية به على دراية تامة بأنها هي نفس الخطوات التي ينتظرها أن تعود، ويشعر بأن الفرحة قد دبَت في قلبه.. الفرحة التي لم يعرفها منذ سنوات.

بلهفة يلتقط الناي ويبدأ بالعزف مُبدعًا كما لم يُبدع من قبل.. كادت الأشجار أن تتمايل من شدة رقص أغصانها من روعة النغمات المُنسابة عبر تلك القصبة الإسطوانية ويلاحظ تباطؤ الخطوات كُلما اقتربت.. التباطؤ الذي كاد أن يقترب من التوقُّف الكامل، ولم ينتابه أدنى شك بأن سبب هذا التباطؤ هو محاولة الإستماع لأكبر قدر من الموسيقى السابحة عبر الأثير.

أكملت ميادة سيرها نحو باب المستشفى وقد استحوذ عليها صوت الناي العذب الذي يشدو.. وبدا لها كأنه صوت بلبل أسير يعاني من الوحدة، يغني من وراء قضبان قفص حديدي كأنه يستغيث بعابر سبيل ليَعيد إليه حريته..

نفس الصباح .. غرفة الأطباء بالمستشفى

حيث الجمع الغفير من الأطباء، دخلت ميادة في ثبات ورائحة عطرها تفوح في أرجاء المكان جاذبة انتباه جميع الحضور، تلمحها مُنى فتسارع إليها وتقول:

- صباح الخير، إزيّك يا دكتورة ميادة؟

- الحمد لله.. إزيّك إنتي؟ ما أخدتيش الأجازة؟

- النكدي الله ينكد عليه ما رضيش وبستفني. مش مهم.. مش مهم. تعالي لما أعرَفك على رئيس القسم بتاعك.
- ما تنسيش زيّ ما إتفقنا، مفيش حد يعرف إني بنت دكتور نبوي.
- إتفقنا يا جميل.

قامت مُنى بتقديم ميادة لرئيس قسم التخدير، وأثناء حوار قصير يدور بين ثلاثتهم ينتبهون لصوت الدكتور أسعد:

- يلّا يا دكاترة.. كل واحد يتفضل على عيادته من فضلكم.

تمضي الأيام وتتقدّم ميادة في عملها، ويزداد حُسن صيتها اليوم تلو الآخر، من حيث كفاءة آدائها كطبيبة وسُمعتها الطيبة واحترامها لذاتها وللآخرين، وأيضًا لسعيها الدائم لمساعدة بعض المرضى ممّن

ترى بأنهم بحاجة ماسّة للمساعدة.
لم يكن خفياَ على أحد إعجاب كثير من الأطباء بها وملاحقتهم لها بشكل مستمر.. والرغبة في التودَّد إليها بشكل أو بآخر.
كانت بذكائها الإجتماعي تحافظ دائمًا على تلك الشعرة الرفيعة بينها وبين الراغبين في التَقرّب إليها، بصدّهم بشكل لائق مع الإحتفاظ بالإحترام المتبادل بينهم.
بمُضيّ الأيام تتَّضح شخصية ميادة أكثر وأكثر لزملائها ورؤسائها، من حيث أنها تلك الفتاة الجميلة.. المُتنمقة.. ذات الأنوثة الغامضة.. التي يبدو على سلوكها أنها تنحدر من عائلة عريقة.
برغم إدراكهم بأنها تعشق التحرّر المنضبط وعدم التَقيّد بمعايير أكثرية الناس، مع ذلك تُجبِر الجميع على إحترام خصوصياتها -تلك المعادلة الصعبة التي فشل الكثير في تحقيقها-..
كان قرارها منذ البداية عدم الإختلاط الشديد واللامحسوب مع مَن حولها، فأغلب الوقت هي صامتة متأملة - اللهم إلا إذا كانت تجلس بحضرة مريض- فتجدها في قمة التركيز والإدراك له ولما حولها.
دائمًا ما كانت تختلس بعض اللحظات لتسترق فيها السمع لنغمات نايّ آدم، لتذكرها النغمات تارة بأحداث أليمة مضت.. وتارة تُبحر بها بعيدًا مع حلم من أحلامها.
تلاحظ منى صمتها المستمر حتى في أثناء راحة الأطباء، وجلوسها بشكل مُنفرد غالبَا بجوار النافذة المُطلَّة على الشارع الرئيسي، وعدم إندماجها مع جمع الأطباء.

فتقترب منها ذات يوم مُحدِّثةً إياها:

- ميادة.. ميادة.. يا دكتورة ميادة.

ترد عليها بعد أن أفاقت من غفوتها:
- أهلاً يا دكتورة مُنى.. إزيّك؟.. بقالي كام يوم مش بشوفك.
- أنا موجودة.. الدور والباقي عليكي.. الحاضر الغايب.. وأنا إللي قولت أخيراَ جالنا حد هعرف أتكلم معاه.
- أنا موجودة أهو.
- موجودة إيه بس! إنتي يا إما في العيادة أو قاعدة جنب الشباك سرحانة.
- لا سرحانة ولا حاجة.. معاكي أهو ومركزة جدًا كمان.
- آه ما أهو واضح، بأمارة إني كنت جنبك وبكلمك وإنتي في وادي تاني، قلتلك صوت الناي بتاعه إدمان.. يخرب بيته.. عبقري.
- هو هنا من زمان؟
- هو مين؟
تُجيب ميادة وهي ترفع خصلة من شعرها:
- بتاع الناي.
- تقصدي الدكتور؟ بيقولوا بقاله سنين.
- واسمه إيه؟
- معرفش..
تستطرد مُنى مُبتِسمة:
- ولا عاوزة أعرف.

تُتَمتم ميادة وهي تستطلع وجه آدم بتركيز رغم بُعد المسافة:

- باين عليه صُغيّر في السن.. ليه ما يشتغلش بدل الشحاتة والمنظر إللي هو فيه ده؟!

- جرى إيه يا ميادة!!.. هم الدقيقتين إللي هتكلم معاكي فيهم هنقضيهم في الكلام عنه؟!

- لا أبدًا.. بس مستغرباله شويّة.. الحقيقة إني مستغرباه كتير..

ويتابعان حديثًا لبضعة دقائق عن أحوالهما قبل أن يتوجه كل منهما إلى عيادته.

دكتورة مُنى وهبه مثالًا حيًا مُتجسدًا للموظف المصري والزوجة المصرية الكلاسيكية، فهي تفضل الراحة التي تقترب من الكسل، فإحدى أهم أولوياتها تكمُن في تمضية ساعات العمل بأقل جهد ممكن، والتَهكُّم على السلبيات لتخفيف آثارها السلبية على النفس، ومحاولة الحصول على أكبر قدر ممكن من الأجازات لتنال المزيد من ساعات السهر، وما يتبعه من النوم لساعات متأخرة صباحًا، وتلك النشوة التي تتملكها وقتما تقترب أجازة رسمية مدفوعة الأجر. بعدها تعود لبيتها لإنجاز بعض الأعمال المنزلية قُبيل وصول زوجها من عمله حتى لا تستثير غضبه. بالمُجمل.. دائمًا ما تحاول الامساك بمنتصف العصا فهي لا تسعى لإحراز تَقدُم ما ولا تُحبذ فكرة تعرضها للوم من أحد.

شهر مارس.. ٢٠١٣

يمضي الزمن بأحداث لا تحمل الكثير ليَذكر، حتى ذلك اليوم الذي اتخذت فيه ميادة قرارها بالتقصِّي عن ذاك الشاب الغريب من وجهة نظرها بعد أن فاض بها الفضول ونال منها ما نال.

أثناء توجهها لباب المستشفى انحرفت يمينًا قليلًا متوجهة نحو كُشك عم نبيل والذي يبادرها مُتسائلًا:

- شاي.. بسكوت؟

تُجيب وهي ترمُق المكان لأول مرة عن قرب:

- شاي لو سمحت.
- هتشربيه هنا ولا كوباية بلاستيك؟
- هاخده معايا.
- لو عاوزة تشربيه هنا وتوفري تمن الكوباية البلاستيك، ما تخافيش حاجتنا نضيفة وزيّ الفل.
- معلش، أنا بس مستعجلة شوية.
- يبقى أحلى كوباية بلاستيك.

يتابع آدم ما يحدث بقدر ما يستطيع بعد أن استشعر أن صاحب تلك الخطوات توجّه لعم نبيل على بُعد بضعة خطوات قليلة منه.

أثناء إعداد عم نبيل الشاي لها تسأله:

- بسمعك كل يوم بتنادي "للغلبان بلاش".... يعني إيه؟

- يعني ببلاش.. يا بنتي هنا الناس معظمهم غلابة وعيانين.. إللي بيقولّي إنه ممعهوش فلوس مش بحرمه من شاي عمك نبيل.
- بتبيع الشاي من غير فلوس؟!
- ساعات.. وربنا بيعوّض والله، وأهو المليان بيكُبّ على الفاضي، وعلى آخر النهار بتُجبَر وماشية عال العال، وكتير منهم بلاقيهم تاني يوم وساعات بعد أسبوع أو اتنين جايين يدفعولي تمن الشاي أو البسكوت إللي خدوه ببلاش.
- يعني لو قُلتلك إني مش هدفعلك، عادي؟!
- بألف هنا وشفا.. ومطرح ما يسري يمري واعتبري تمنه وصل.
- بس لو كل إللي جالك هياخد الحاجة ببلاش، هتكسب فلوس منين وتصرف على بيتك منين؟!
- يا بنتي لو إنتي فاكرة إن الفلوس هي إللي بتصرف على البيت تبقى غلطانة..
- أومال..؟!
- إللي بيصرف على البيت هو رزق مبعوت من ربنا.. والرزق مش فلوس وبس، الفلوس جزء صغير من الرزق.. الرزق حاجات كتير.. الصحة رزق، وراحة البال رزق، ووقفتك على رجلك رزق والستر رزق، ولو عدِّيت أبواب الرزق من دلوقتي لبكرة مش هخلص.. الخُلاصة يا بنتي إنتي ممكن تكسبي فلوس تقل وزنك وقبل ما توصلي بيتك لا قدر الله تصرفيهم على مرض أو يتسرقوا منك أو أي إبتلاء تاني..
- تقصد إيه يا حاج؟

- أقصد ستر ربنا هو إللي بيصرف علينا وهو إللي مخلِّينا عايشيين لحد دلوقتي.. وربنا له تدابيره ورزقه له أبواب أكتر من إن أيّ إنسان يعرف يعدها..

استمعت ميادة لما قال الرجل وكيف عبّر ببساطة عمّا عجز عنه كبار الفلاسفة والمُتحذلقين وتُردِف قائلة:

- عندك حق.. عمومًا تسلم يا حاج.. مستورة الحمد لله.

تأخذ قدح الشاي بعد أن دفعت ثمنه وتستدير حيث يجلس آدم، متوجِّهة صوبه...

بينما هي في طريقها إليه أخذ قلبه يرتجف للدرجة التي أشعرته بأنه يحاول مُجتهدًا النفاذ من بين ضلوع قفصه الصدري للهروب والإختفاء خلف إحدى الشيجرات القريبة تفاديًا لهذا الموقف، رجفة الناي في يده زادت الطين بلة وخاصة استشعاره بازديادها كلما اقترب صوت صدى الأقدام منه، حاول أن يُقنع نفسه بأنها فقط سوف تضع بعض النقود وتنصرف وأن الأمر بِرمّته لن يستغرق أكثر من ثوان تُعَد على أصابع اليد الواحدة، ودعا الله أن تمضي تلك اللحظات سريعًا دون أن تلاحظ هي شيئًا.

تستقر أمامه مباشرة.. مضت بضعة ثواني انتظر خلالها آدم ظنًّا منه إنها ستغادر ولكنها لم تفعل.. ولم تكن لتفعل إلا بعد أن تبلغ ما انتوته.. ولم ينقطع آدم عن العزف إلا عندما بادرته قائلة:

- صباح الخير..

حدث ما لم يتوقعه وهو أنه الآن يستمع لصوتها والذي ظل طوال عدة أشهر مضت ينتظر سماعه.
فيتوقف عن العزف ويضع الناي جانبَا ويرد:

- صباح الخير..

لم تتوقع ميادة مطلقة أ ن نبرة صوته بها هذا الكمّ من زخم المشاعر المختلطة بالحسم والحزم والحنان في آن واحد -هكذا كانت نبرته دائمًا- ولاحظت أنه لا ينظر إليها بل أن عينه لم تطرف حتى.. فتواصل حديثها:

- آسفة إني قطعت عزفك.
- مفيش داعي للأسف.. يمكن أكون.. أكون أنا إللي محتاج أتأسف لإني عامل إزعاج.

تبتسم ميادة وتُدرك مدى حكمته في الرد.. خاصة أنه بالطبع يعلم موهبته الفريدة في العزف، وما قاله هو فقط محاولة لإظهار تواضع المحترفين.. وتستطرد:

- إزعاج إيه بس!!.. أكيد لأ، أنا كنت بفكر أتعلم موسيقى وعلشان كده قولت أسألك على مكان أروحه ويكون كويس.
- معهد موسيقى تقصدي؟
- بالظبط.

- للأسف ما عنديش أيّ فكرة.
- أنا قلت إنت أكيد هتقدر تفيدني. إزاي بتعزف كده وما تعرفش معهد بيعلم الموسيقى!! أومال إنت اتعلمت فين؟
- لقطت العزف من والدي الله يرحمه، كان فنان وورثت الموهبة دي عنه، حتى الناي ده وارثه عنه. ده يعني لو حبيتي تسميها موهبة.

ويصمت للحظة ثم يستطرد:

- كده هتتأخري على ميعاد المستشفى يا دكتورة.

تسأله ميادة بعد أن وقعت جملته الأخيرة عليها كالصاعقة:

- دكتورة!.. إنت عرفت منين إني دكتورة؟!
- مالك مستغربة كده ليه؟!
- لازم أستغرب.. وأستغرب جدًا كمان. وبعدين ليه ما أكونش عيّانة أو حتى مجرد حد عادي ماشي!

هنا وفي تلك اللحظة تحديدًا يفطن آدم أنه يمتلك زمام الحوار ويرد قائلًا:

- مش ممكن تكوني حد عادي لإنك بتعدّي من هنا كل يوم وفي نفس الميعاد، والمكان هنا مفيش فيه غير المستشفى.. ومستحيل تكوني عيّانة وجاية تكشفي و...

تقطع ميّادة حديثه مُتسائلة :

- ليه مستحيل؟!
- لأن دي مستشفى عام.. الغلابة بس إللي بييجوا، وصوت خطوة الغلبا ن والعيّان بتتعرف.. تقيلة وكلها هَمّ وبطيئة.. خطوة من تُقلها عقارب الساعة تقف معاها.. ربنا يكفيكي شر الهم والمرض.
- وليه ما أكونش إدارية في المستشفى؟!
- أنا هنا بقالي سنين و عارف إن المستشفى دي مديرها مشدِّد على كل الموظفين في مواعيد الحضور. والإداريين بيوصلوا قبل الدكاترة بربع ساعة.. وبعدين كده بجد هتتأخري يا دكتورة..

لم تستطع الرد من هول ذهولها وتفاجُئها بالحوار، وبينما تستدير لتمضي في طريقها، يعاود آدم التقاط نايه ليستأنف العزف على إيقاع خطواتها، وهنا تيقَّنت ميّادة من هاجس تولَّد لديها منذ فترة.. أنه بالفعل يتّخذ من صوت خطواتها إيقاع له.

داخل تلك الغرفة الفارهة ذات الأساس الراقي الكلاسيكي.. بالطابق الرابع من البرج السكني الضخم المُطلّ على النيل، والتي تمّ الإعتناء فيها بأدق التفاصيل -غرفة ميادة-، حيث الجدران المُزيّنة بالزخارف المصنوعة من الخشب الطبيعي والسرير الواسع المُزَيّن بأعمدة من حوافه الأربعة ويتدلى منها ستائر من القماش الخفيف التي تُظهر من الخارج ما بالداخل.. والمرآة الجدارية المزوّدة بإطارات معدنية التي تتوسط الحائط المواجه لشباك الغرفة والألوان الزاهية للحوائط التي يغلب عليها اللونيّن الوردي والأبيض، والثريا الذهبية المُدلاة من السقف.. بالإضافة إلى دولاب يتربّع على الحائط المواجه للسرير والذي يحـ مل نفس ذات النقوش التي تُزين السرير.

تستلقي على سريرها الوفير ولا يُغمَض لها جفن منذ أن استأذنت من والدها بعد انتهاء الغذاء لتستريح.. بحجة أنها تعاني من الإرهاق.

ومن الإستلقاء على سريرها إلى الترجل ذهابًا وإيابًا من حائط غرفتها للحائط المقابل.. وكل ما يدور بذهنها الحوار مع عازف النايّ، وكيف كانت لكنته وأسلوبه المتفرد وتملُّكه لمقاليد الحوار، وتلك الملاحظات التي لا تخطر ببال إلا المتأمل. وتبدأ بالهمس لنفسها:

- ما هو ده مش ممكن يكون شحّات.. بس هيكون إيه؟! هو فعلًا شحات. بس إزاي أسلوبه كده؟! ده أنا أول مرة من زمان أتلجِّم كده.. إزاي ده حصل لي؟! بقى ميادة النبوي إللي الكل

بيتمنى كلمة منها، يِلفّ الزمن وييجي شحّات يقول لها هتتأخري ويوزَّعني. وإيه الثقة إللي في كلامه دي؟!.. وإيه قصة الدكتور.. الدكتور!

وتظل هكذا إلى شروق الشمس....

على الجانب الآخر، في تلك الغرفة المتواضعة على سطح ذاك المبنى المُتهالك المُطلّ على الشارع الرئيسي لحارة المناديلي.. كان حال آدم لا يختلف كثيرَا عن ميّادة.. وحواره مع صاحبة الخطوات الساحرة لا يغيب عن ذهنه.. وكيف كان وقع صوتها الرقيق الحنون على أذنه.. وكيف أن القدر ساقها إليه ولم يكن هو بأيّ حال من الأحوال لديه القدرة للتواصل معها إلا إذا بدأت هي.

مشاعر.. أفكار.. تساؤلات وحيرة تدور بداخله، إلى أن أقيم الآذان مٌعلنًا عن صلاة الفجر.

الزمان كان واحدًا.. والأسئلة والتساؤلات متشابهة.. والأرق والعجز عن الوصول لإجابات تشفي غليل النفس واحد.. كل شئ كان مٌتماثلًا في المشهدين.. عدا المكان.

صباح اليوم التالي..

يشهد هرجًا ومرجًا في بهو المستشفى. فتزامنت زيارة مُرتقبة لوزير الصحة مع وصول عجوز مُسنّة تم نقلها بواسطة مجموعة الشباب بعد وقوع حادث أليم أفقدها وعيها، ناهيك عن الكسور وتَدفُّق الدم بغزارة.

في العادة لا تستقبل المستشفى هذه الحالات المُعقَّدة وخاصة من كبار السن لضعف الإمكانيات، خاصة وأنهم يحتاجون لإجراءات وتدابير خاصة في التخدير والعناية بعد إجراء العملية.

يهرع أسعد من حجرته دافعًا كل مَن يجده أمامه محاولًا الوصول بأقصى سرعة للمريضة، وهو على علم بأن وقت وصول الوزير قد اقترب. وهو الذي انتظر هذه الزيارة طويلًا بل وسعى إليها..

بالطبع، لولا هذه الزيارة لكان الأمر يسيرًا بالنسبة له، ولأصبح القرار سهل بنقلها إلى أحد المستفيات الأخرى الأكثر تخصّصًا، ولكن هنا تغيّر الحال. هكذا جالت الأفكار في عقله.. ماذا سيكون الحال لو وصل الوزير الآن ووجد تلك المريضة وقد اقتربت من حافّة الموت يتم نقلها إلى مكان آخر؟ بالتأكيد سيتهدَّد كل مستقبله الوظيفي وهو الذي أفنى من عُمرِه سنوات في بنائه، مُحاولًا إيجاد مكان له بين الكبار. وبدأ ذلك يتحقَّق بالفعل بعد أن حقَّق نقلة نوعية في آداء المستشفى، وكان يتوقَّع ترقيته بعد زيارة الوزير ليكون وكيل وزارة الصحة بالقاهرة أو على أقل تقدير بإحدى المحافظات الكبيرة. كل هذا وأكثر جال بخاطره وهو مُسرِع نحو

المريضة إلى أن يصل ويوجِّه سؤاله لمَن يحملها بين يديه:

- تقرب لك؟

يردّ الشاب الذي يحملها:

- لا.. واحد خبطها بعربيته وهي بتعدِّي الشارع وسابها وجري.
- مفيش حد من الواقفين يعرفها؟!

التفت لإسعاد آمراً بعدما فقد الأمل في إجابة من الحضور:

- عاوز أشطر دكتور جراحة عظام، ودكتور تخدير حالًا، وحد ينقلها للطوارئ.

فتهرع إسعاد لتنفيذ ما أُمِرَت به...

على عكس الداخل كان الخارج يُغلِّفه الهدوء تمامًا في الشارع الرئيسي خارج المستشفى. حيث تناقصت أعداد المارّة بشكل لافت للإنتباه بسبب التشديد الأمني الكثيف، وقد اعتنى به عُمّال النظافة اعتناءاَ غير إعتيادي وزيّن ببعض الشجيرات تأهَّبَا لزيارة الوزير واحتفاءاَ بها.

تبرز أنغام الناي وسط ذلك الهدوء لتدوي في الفضاء لافتة معها كل إنتباه، مُذكِّرة كل قلب بحُب حالي أو بغرام تاه بين طيات الزمن،

حتى الحرس الشخصي للوزير لم يجد أي سبب لمنع آدم من آدائه اليومي خاصة وأنه لا خطر منه حيث أنه ضرير ويبتعد عن المستشفى بالقدر المسموح به.

كذلك ظل عم نبيل بمكانه وتلقى فقط تعليمات بعدم الصياح في وقت مرور الوزير ولحين مغادرته، لم تكن التعليمات بالنسبة إليه بالأمر الهام، حيث لم يكن بالمشهد إلا القليل جدًا من المارّة الذين استطاعوا أن يعبروا بعد التدقيق في هويتهم من الجهات الأمنية التي إحدى أهم أولوياتها حماية الوزير وأمنه.

داخل غرفة الطوارئ وفي حضور جمعٌ من الأطباء يلتفون حول العجوز المصابة، منهم مَن يأخذ بعينة دم منها.. وآخر يتفقد درجة حرارتها، بينما تجد أحدهم مُمسكًا بجهاز قياس الضغط واضعاً سماعته الطبية بأذنيه في محاولة يائسة لالتقاط أي نبض ليتمكن من قياس ضغط الدم.

وأسعد يترقَّب كل هذا من بُعد، ولا يتدخَّل لا من قريب ولا من بعيد.

يلج دكتور محمد السُبكي -جرَاح العظام- وتعقُبه ميادة بلحظات معدودة. وبعد أن ينتهي كلٌ من عمله.. يوجه أسعد سؤاله للأطباء الذين قاموا بفحص الحالة:

- ها.. إيه الأخبار؟

يرد أحدهم:

- الأخبار مش تمام يا دكتور.

يسأله أسعد بفضول:

- مش تمام إزاي يعني؟ إتفضل قول بسرعة.
- الضغط ٦٠ / ٤٠.. حالتها مش مستقرة.. نزفتْ كمية دم كبيرة. عندها هشاشة عظام واضحة وبنسبة كبيرة.. ولحد ما تطلع نتيجة عيَنة الدم هنشوف الباقي.. وفصيلة الدم وخلافه زيّ ما حضرتك عارف.

يلتفت أسعد لدكتور السُبكي ويسأله:

- دكتور محمد.. إيه رأيك؟
- الموضوع صعب والنتيجة مش مضمونة للأسف.. سنها كبير.. الكسور كتير.. وإمكانياتنا حضرتك أدرى بيها مني.
- صعب ولّا مستحيل؟
- مستحيل يا دكتور.
- مفيش مستحيل في الدنيا يا دكتور سُبكي.. كله ممكن.

ثم يلتفت لميادة ويسألها:

- إيه رايك؟ وقبل ما ترَدِّي فكَّري كويس لأن نجاحنا نسبة كبيرة

أوي منه على التخدير.

- رأيي إننا نتوكل على الله.
- هتقدري؟ الست ضغطها رايح وسكر.. وسبعين سنة. تخديرها مش سهل.. ممكن تروح مننا.
- خير يا دكتور.. الجزء الخاص بيّا اعتبره مُنتهي.

بنظرة إعجاب لا تخلو من لمحة قلق يرد:

- الله ينور يا دكتورة.. وإنت يا دكتور سُبكي؟

يرد الجراح وهو يتأمل المريضة بشفقة:

- أنا بصراحة مش هقدر يا دكتور.. دي مسئولية كبيرة والنتيجة فعلًا مش مضمونة.

هُنا يدرك أسعد أنه يجب أن يتخذ قراره سريعًا وبدون أن يلتفت لطبيب العظام، يوجِّه أوامره لإسعاد:

- بسرعة.. وبأسرع ما يمكن غرفة العمليات تِتحضَّر وتنقلوا المريضة، وفي خلال نُص ساعة بالكتير نبدأ الجراحة.

يسارع دكتور السُبكي بالتَحدَّث بعد أن عقد قراره بعد لحظات من التردَّد:

- دكتور أسعد، أنا مش هقدر أعمل عملية زيّ دي.

بدون أن ينظر إليه يرد أسعد بتعجُب:

- ومين قال إنك هتعملها...؟!

ثم يمضي خارج غرفة الطوارئ والتوّتر قد تملَّكه...

وسط موكب غفير يصل الوزير ليجد في إستقباله نائب مدير المستشفى والمدير الإداري وبعض من قُدامى الأطباء بالمستشفى وبملاحظته غياب أسعد، يتساءل بدهشة:

- أومال فين الدكتور أسعد؟! هو مش عارف إني جاي ولّا إيه؟

يرد نائب المدير مع إنحناءة متوسطة للأمام :

- الدكتور بيعتذر لمعاليك، هو فعلًا كان بانتظار سيادتكم.. وقبل معاليك ما توصل بدقايق استقبلنا حالة خطيرة واضطر الدكتور إنه يِدخل العمليات.
- يعني هو دلوقتي في العمليات؟!
- بالظبط كده معاليك.. والدكتور بلَّغنا نكون تحت أمرك سيادتك لو حبَيت معاليك تاخد جولة في المستشفى، طبعًا ده لو كنت حابب سعادتك..
- أيوة طبعًا.. مفيش مانع...

داخل غرفة العمليات..

حركة غير عادية لطاقم تمريض العمليات الجراحية يتوسطهم أسعد وميادة والمريضة مُمَدَّدة على سرير الجراحة أمامهم وتكاد تبدو للناظر أنها في الأنفاس الأخيرة.

كل هذا وميادة لا تدري مَن سيقوم بإجراء الجراحة وتحاول أن تتجاهل أيّ شيء وكل شيء من حولها لتستطيع التركيز في مهمتها الشديدة الصعوبة والتي تُمثِّل تحدياً خاصًا لمهارتها كطبيبة للتخدير، وإذا بصوت أسعد يتخلَّل تركيزها:

- مُستعدِة يا دكتورة؟
- آه.. آه جدًا.
- يلّا ابدأي وسمِّي الله.
- بس هو مين هيعمل العملية بدل دكتور محمد؟
- أنا يا دكتورة.

تتفاجأ ميادة من هذا الرد الغير متُوقَع بالنسبة لها، والذي لم يخطر لها ببال و إذا بصوت أسعد يقرع طبلتي أذنيها:

- ميادة.. يلّا توكلي على الله.
- حاضر.. حاضر.. توكلنا على الله.. بسم الله.

ثم تنخرط بإجراءات تخدير العجوز...

الدكتور أسعد الساعاتي.. هو في الأصل جرّاح للعظام والكسور.. تخرّج في كلية طب المنيا حيث ينتمي بالأساس هو وعائلته العريقة، وحصل بعدها على رسالة الماجستير من جامعة الأسكندرية. يمتلك عيادة خاصة به في وسط البلد.. يُمارس بها عمله بعد انتهاء ساعات عَمله الرسمية بالمستشفى، روّاده معظمهم من فقراء المنطقة أو من أقربائه وجيرانه في المنيا، في حال إذا ما استدعت الحالة السفر للقاهرة طلباَ للعلاج.
داخل عيادته الخاصة يبدو أسعد الطبيب مُختلفًا تمامًا عن أسعد المدير، فيميل للهدوء والتحاور مع المرضى والمُزاح معهم أحيانًا كثيرة، فهو يعتقد بأنَّ نصف العلاج بأنْ يشعر المريض بالألفة مع طبيبَه.
كثيراَ ما كان يردّ قيمة الفحص الطبي - الفيزيتا- إذا ما استشعر حاجة المريض للمال وأيضًا اعتاد أن يُعطى بعض المرضى العيّنات الدوائية المجانية التي يحصل هو عليها من شركات الأدوية كنوع من الدعاية لها.

دهشة ميادة بآداء أسعد الرائع داخل غرفة العمليات بلغت مداها

ومدى تمكُّنه من السيطرة على مقاليد الأمور وتحكُّمه من أدواته و مهارته الفائقة في التعامل مع المُسنّة العجوز وإصلاح الكسور، كسر بعد أخر ولا يسمح لأحد بقطع تركيزه، حتى الأدوات كان يتناولها بلغة الإشارة مع طاقم التمريض.

بدا لها كجراح صاحب خبرة لا بأس بها مطلقًا، إضافة إلى محاولة إتقانه لكل خطوة يقوم بها، بل متابعته لكل خطوة يقوم بها الطاقم المُساعد له.

بالخارج حيث الهدوء.. يقترب عم نبيل من آدم مُوجَهًا حديثه إليه:

- يا دكتور..

يُنَحَي آدم نايه جانبَا مجيبَا عم نبيل:

- نعم يا عم نبيل..
- شايف وقْف الحال؟ ما بيّجيش من وراهم غير العطلة وقطع الأرزاق.
- هو أنا أكيد مش شايف.. بس هو ده النظام، مش أول مرة يا عمّنا، وفي مفاجأة كمان..

يسأله عم نبيل مُتلهِفًا:

- إيه هي يا دكترة؟

يرد آدم مُتهكِّمًا:

- إنها مش هتكون آخر مرة..

بعد إبتسامة طفت على شفتي عم نبيل يقول:

- مش فاهم.. هو الوزير ده مش بني آدم زيّنا..؟ إيه كل الحراسة والتفتيش دول..؟ ده ناقص يا دكترة يفتِّشوا نسمة الهوا المعديّة.. جبروت أعوذ بالله.
- كُلْ عيش يا عم نبيل، ولّا عاوز تقعد في البيت ما تخرجش منه تاني؟
- لا وعلى إيه..؟ الطيب أحسن، ورايا عيال عاوز أربِّيهم.
- أيوه كده.. هاتلي شاي. أنفَّعك بدل ما إنت واقف ما بتعملش حاجة.

تعلو وجهيهما إبتسامة عريضة تعقبها إستدارة عم نبيل مُتجهًا صوب كشكه لإحضار الشاي لآدم وهو يتمتم:
"مستغربك يا دكترة.. يا ترى مالك!"

تُفتَح غرفة الطوارئ، وإذا بالوزير يلِج داخلها بعد أن ارتدى الملابس المُعقَّمة، يلمحه بعض من طاقم التمريض المُواجِه للباب ويسارع بالإشارة لهم بسبابته بعدم التحدث أو محاولة إظهار تواجده،

ويتابع أسعد وهو يقوم بعمله على أكمل وجه وقد أوشك على الإنتهاء بعد عمل شاق.
يوجِّه أسعد حديثه لأحد مساعديه من الأطباء الصغار:

- دكتور عز.. الجرح إللي في الفخد اليمين محتاج أربع غُرز بالخيطِ الأزرق الرفيع.. الرفيع هه.. الست مش متحمّلة.

بعدها بقليل و بعد أنهى دكتور عز خياطة الجرح، يلتفت أسعد لميّادة مُتسائلًا:

- جاهزة يا دكتورة؟
- جاهزة يا دكتور.

تبدأ ميّادة إجراءات إفاقة المريضة بعد أن تأكد أسعد بأن المهمة قد انتهت بنجاح، وأن كل فرد من طاقم الجراحة قد قام بعمله على أكمل وجه، ولم يكن يَخفى على أحد أن الجزء الأخطر هو ذاك، بينما تُظِهر ميّادة براعة فائقة في التصاعُد خطوة بخطوة في إفاقة العجوز لدرايتها بخطورة الأمر.
كل هذا يحدث والوزير يتابع المشهد من بعيد.. وينتبه الجميع لصوت ميّادة وهي تحادِث المريضة:

- حمد الله على السلامة.. سامعاني؟

بالكاد تومئ العجوز برأسها بالإيجاب.

يصيح كل مَن بداخل غرفة العمليات مُهلِّلين بنجاح الجراحة، بينما يزيّل أسعد الجوانتي -الذي تلوّن بدماء المريضة- ويُحدِّث ميادة:

- الله ينوّر يا دوك.. ما كونتش أعرف إنك شاطرة كده.
- بعض ما عندكم يا دكتور. بجد الست دي اتكتبلها عُمر جديد على إيدَك.
- وعلى إيدِك يا ميادة.

وإذا بيد تُربِّت على كتفه.. فيلتفت إليها، فإذا به يجد الوزيّر واقفًا خلفه، فسرعان ما يلتفت أسعد إليه ويقول:

- أهلًا يا أفندم.. آسف والله، كنت المفروض أكون في إستقبال سعادتك.. بس الظرف الطارئ ده منعني.

يُعقِّب الوزير وهو لا يزال يُربِّت على كتف أسعد:

- لا آسف ولا حاجة.. إنت دكتور عظيم يا أسعد.. كنت فاكرك مدير ناجح بس.. لكن اكتشفت إنك كمان جراح من الجراحين التُقال.

ثم يبتعد بنظره عن أسعد، موجّهًا حديثه لكل مَن بالغرفة :

- الله ينوّر عليكم.. عملتم شغل أكتر من ممتاز.

يبتسم الجميع ويكاد الرد يكون في آنٍ واحد:

"العفو يا فندم.. ده واجبنا".

يتابع الوزير حديثه ويقول:

- يا دكتور أسعد.. كل واحد في الأوضة دي من طقم تمريض لدكتور مكافأة شهر.. ما عدا أنا طبعًا.

يبتسم الجميع لمزحة الوزير، مُظهرين سعادة بالغة بهذا الحافز، وإذا به يواصل مزحته مُجَدِدًا ضاحكًا:

- أنا هاخد شهرين مكافأة.

تتعالى أصوات الضحكات من الجميع.. في أجواء لم تشهدها تلك المستشفى منذ زمن ليس بالقريب..

داخل مكتب أسعد، يرتشف الوزير من فنجان القهوة موجِّهًا حديثه لأسعد.. الذى تنحّى عن مقعده المعتاد خلف مكتبه تواضعًا وإحترامًا لمكانة الوزير وهيبته ويجلس أمامه:

- المستشفى إتعمل فيها شغل حلو.. أنا أخدت جولة صغيرة مع النائب بتاعك أول ما وصلت.

- كله بتعليمات سيادتك.

- والنهاردة كانت مفاجأة ليّا.. إن المستشفى بيتعمل فيها عمليات حرجة زيّ دي.

- سيادتك عارف إن المستشفى بالإضافة للعيادات الخارجية والطوارئ ما بتعملش غير جراحات بسيطة جدًا لأن الإمكانيات محدودة.
- عارف عارف..

يقترب الوزيرمن أذن أسعد هامسًا ومبتسمًا:

- الشاطرة تغزل برجل حمار يا دكتور.. وإنت شاطر يا أسعد.

لم يتمالك أسعد نفسه من كريزة ضحك أصابته ويرد ولا تزال الإبتسامة تكسو وجهه:

- بس ما بغزلش برجل حمار سيادتك.

تتعالى الضحكات في أرجاء الغرفة.. ويهِمّ الوزير بالمغادرة مصافحًا أسعد وهو يقول:

- إن شاء الله هتسمع خبر حلو قريب.

يتجه نحو باب الغرفة وأسعد يتقدمه لفتح الباب قائلًا:

- شرَفتنا والله يا معالي الوزيّر، ويا ريت الزيّارة دي تتكرر.
- هتكرر يا أسعد.. أكيد هتكرر. بالمناسبة، دكتورة التخدير إللي كانت معاك.. واضح إنها مُتمكِنة وشاطرة.
- آه.. آه.. طبعًا..

يغادر الوزير المبنى بصبحة الوفد المرافق له والحرس الشخصي، وصوت سارينات الموكب يملأ المكان بالضجيج والصخب..

بعد لحظات من القلق و التوتر عاشتها ميّادة، لم تجد بدٌّ من التوجّه مباشرة ناحية النافذة في غرفة الإستراحة لتسترخي على صوت ناي آدم، و برغم الإزعاج الذي كان يُسبَبه صوت موكب الوزيّر إلا أنها لم تكن تسمع إلا صوت الناي، وكأنه تخلّل كل تلك الأصوات المزعجة ليبدو هو الصوت الوحيد -على الأقل بالنسبة لها-.

سَبَحت مع أنين تلك النغمات خلال سنوات طفولتها، وكيف كانت مختلفة عن باقي أقرانها. كانت في حجم أجسام الآخرين وعمرهم، لكن لطالما تميّزت باختلاف تفكيرها.

تذكرت كيف كانت والدتها تُنَمِّي ذلك الوعي المُبكِّر فيها ، وكم كان والدها يعارضهما بشدة في ذلك خوفًا عليها من الصدام مع الآخرين.. خاصة أن القطاع الأكبر من الناس لا يُحبَذ فكرة الإختلاف أو حتى محاولة الدنو منه..

استحضَرت ذكريات معاناتها في صغرها وفي المراحل الأولى من شبابها من قهر وظلم في أحيان كثيرة بسبب آراءها الصريحة من ناحية.. والصادمة أحيانًا أخرى..

جال بخاطرها وهي في المرحلة الإعدادية بمدرسة راهبات الأنبا بيشوي للبنات بالعباسية.. والتي تعلمت فيها الكثير من آداب

البروتوكول والمعاملة التي لا تكاد تخلو من قسوة.. كدأب مدارس الراهبات دائمًا.

طفت على سطح ذكرياتها مديرة المدرسة وكيف كانت تعاملها بلطف زائد وغير معتاد توددًا لأبيها لعلمها بأنه من الأطباء المشاهير والأثرياء أيضًا، طامعة في بعض التبرّعات للمدرسة أو بالفحص عنده لنفسها أو لأسرتها بالمجان، مما ولّد لديها رغبة بل قرارًا.. بأن عمل والدها ووضعها المادي سيظلان سرًا ولن يعرفه أحد رغبة منها في الإعتماد على ذاتها وألا يكون لوالدها دور في محبة الناس لها من عدمه..

بالمُجمَل كانت طفولتها سعيدة.. خاصة بسبب انسجامها مع أخيها الأصغر منها بعامين وخوفه عليها، ورغم أنها تكبره فإنها كانت تعتبره بمثابة الأخ الأكبر، لما وجدت منه حنان واحترام وإيثار وشجاعة مطلقة في الدفاع عنها إذا ما تطلَّب الأمر.

كذلك والدها ذو المكانة المهيبة المرموقة.. المقترنة بالسمعة الطيبة والذي طالما لعب دور الأب باقتدار ورب العائلة باحتراف، والذي لم ينسى مطلقًا دور زوجته في مساعدته في بدايات حياته العملية، حيث كانت تنتمي لعائلة ثرية، وكيف أنها قامت بشراء أول عيادة له من مالها الخاص وأسّستها بالكامل، والأهم أن هذا الأمر ظل سرًا لا يعمله أحد من البشر إلا عندما قام هو بافتتاح مركز لطب وجراحة العيون، وسجّل الملكية باسمها عن طيب خاطر كتعبير منه عن رد الجميل..

هكذا كانت روعة تلك الأم الحنون.. التي اختطفها القدر. تذكرتْ

آخر لحظات في عمر أمها وهي على سرير المرض بغرفتها، بعد أن قررت أن تغادر المستشفى بعد تيقّنها أنها في المراحل الأخيرة من عمرها.

وهي في لحظات إحتضارها الأخيرة همست في أذن ميادة:

- هتبقي مكاني.. لازم تبقي أم وأخت في نفس الوقت.

قالتها ولفظت أنفاسها الأخيرة وسط نواح وبكاء منها ومن الأب والأخ....

بعد وفاة الأم لم تبخل ميادة بجهد في رعاية تلك الأسرة من جميع الجوانب، فكانت تُقدِّر رغبة الأب بعدم ا ستقدام خادمة برغم يُسر الحال، فكان ولا يزال يعتقد بأن سلبياتهم أكثر من إيجابياتهم وإن كثُرت وخاصة فيما يختص بإعداد الطعام حيث اعتاد على طهي الأم ولا تجد فكرة أن تمتد يد غريبة إلى طعامه منفذ للولوج لعقله..

فكانت رعايتها للأسرة والقيام بجميع احتياجاتها يتزامن مع الدراسة الجامعية ومن بعدها العمل، فلم يطغى جانب على الآخر، فاستطاعت بالخبرة التي اكتسبتها من والدتها أن تخلق توازنًا حقَّق ا لكثير من الإستقرار النفسي لها ولأسرتها.

تفيق ميّادة من غفوتِها، هامسة بصوت تتحدث به لنفسها لا يسمعه أحد غيرها:

"يخرب بيتك، كفاية بقى.. إيه صوت الناي ده؟! إنت إيه بس؟! الله يصبّحك بالخير يا مُنى، كان عندك حق، الولد فنان بجد.. ده مش إدمان ده أكتر من الإدمان.. ارحمني بقى يا أخي".

- آه طبعا يا ستي بقيتي أشهر من نار على علم. أكلتي الجو كله مننا.

(هكذا بادرت منى ميّادة عندما رأتها بالإستراحة)

تبتسم ميادة، مُجيبة:

- جو إيه بس؟!
- مبروك يا حبيبتي والله فرحانة بيكي من قلبي.. ربنا يعلم.
- عارفة يا منى.. ومتأكدة إنك من أطيب الناس إللي عرفتهم.

تُعقِّب منى ساخرة كعادتها:

- لا طيّبه إيه.. ده أنا الشر كله يا حبيبتي.

وتستطرد مُتسائلة بفضول أقرب لفضول الأطفال:

- هو صحيح دكتور أسعد إللي عمل العملية؟!
- صحيح.
- تصدقي أنا أول مرة أعرف إنه بيعمل عمليات.. على كده شاطر؟
- جدًا.
- جدًا كمان..؟! غريبة.. ماشي.. هو إحنا لسه شفنا حاجة!! بقولك إيه يلّا بينا على العيادة لا يقفشنا ويِطَلَّع العملية وزيارة الوزير علينا.

تمضيان متأبِّطتين ذراعيهما ومبتسمتين...

تمر الأيام بأحداثها اليومية العادية. بأحزان تمضي.. وتداوي جراحها الساعات وبأفراح يُنسينا إياها الزمن. ولم يتغير حال ميّادة كثيراَ أو حتى آدم.

فلم يكونا جزءاَ من ذلك المُعترَك البشري. كانا على حالهما بينما الكل يجري في الحياة هائمًا على وجهه محاولًا اللحاق بقطار الحياة السريع.. فالجميع منشغل بالحياة ليلًا ونهاراً بينما لا تبالي هي بأحد، تقف الحياة مُتبسمة مُتابعة البشر وهم يركضون بذاك السبق الذي لا نهاية له بحَثًا عن المال أو الجاه، ويزداد تَبسّمها وهي تراهم الواحد تلو الآخر من شدة اللهث وتكاد ضحاتها تُسمَع من قوّتها وهي تستمتع بمشاهدة مَن لم يسقطوا وهم يواصلون لهثهم ولم يَعتبِروا ممّن سقطوا قبلهم ظنًّا منهم أنهم قادرون على إنهاء السبق والإنتصار فيه.

فقليلٌ هُم المدركون لحقيقة الحياة، وقليلٌ هُم مَن أدركوا أن الحياة هي التي تعيشنا وتروِّضنا كيفما تشاء وتختبرنا وتنتظر النتائج.

إبريل ٢٠١٣.. بعد شهر من زيارة الوزير

يرن هاتف إيناس سكرتيرة أسعد وتهرع إليه مُجيبة:

- افندم.

كان أسعد هو المُتحدث فبادرها قائلًا:

- إيناس.
- أؤمر يا دكتور؟
- عاوز ميادة حالًا.
- دكتورة التخدير يا دكتور؟
- آه طبعًا وهيّ في غيرها ميّادة في المستشفى يا إيناس؟!
- آه يا افندم.. على حد علمي في تلاتة اسمهم ميادة.

يُعقِّب أسعد بتملُّل واضح:

- طيب.. طيب.. عاوزها حالًا.
- حاضر.. حاضر.

مُستندًا على مقعده وعابثًا بقلمه الحبر العتيق على قصاصة من ورقة أ مامه.. يُطرق باب غرفته وإذا بميادة تدخل الغرفة وتبادره بالحديث:

- حضرتك طلبتني؟
- أيوة.
- خير؟
- خير.. إتفضلي اقعدي.. مالك النهاردة لابسة لِبس غريب كده؟!
- عادي.. مجرد تغيير.
- تغيير. ولا تقشُّف؟..عمومًا ده أو ده مطلوبين..

ويُكمِل وقد ارتسمت على وجهه ملامح جادة لا تخلو من حدة :

- مش هنكر إنك دكتورة شاطرة.. بس ده مش معناه إنك تعملي فيها مديرة..
- مش فاهمة!!
- لأ فاهمة، وإذا ما كنتيش فاهمة.. هفَّهِمكْ، إنتي ليكي مدير في القسم، صح؟
- صح.

يستطرد مُتهكِمًا:

- على حد علمي إنه أقدم منك بسنين طويلة، ولاّ أنا مش واخد بالي؟
- أكيد.. بس هو في إيه بالظبط؟ لإني فعلًا مش فاهمة حاجة خالص.

- هفهِّمك يا دكتورة.. ما ينفعش كل يوم والتاني ألاقيه بيشكيلي إنك عاوزة تِمَشِّي القسم على مزاجك، وإنك بتحاولي بشكل أو بآخر سواء قاصدة أو لأ إنك تتخطِّيه.

- أنا مستغربة الكلام ده جدًا.. وتقريبًا لسه مش فاهمة!!

بعد لحظة صمت تعبث فيها بخصلة من أطراف شعرها، تلفّ إياها حول سبابتها وتُكمِل:

- يعني لو قُلت رأي ممكن يطوّر المكان أو يُسهِّل إجراءات مُعقدة وطويلة، أبقى عاوزة أعمل مديرة..؟ لو عملت خطوة علشان أتخطَّى بيها خطوات من الروتين المزعج إللي بيضيّع بدل الساعة ساعات وأحيانًا أيام أبقى بتخطَّى مديري؟!

تتنهَّد وتكمل وهي عاقدة حاجبيها:

- دكتور أسعد.. أنا لا بفّكر ولا عندي مجرد نيّة إني آخد مكان حد.. ولا عاوزة، وإذا كانت في بعض العقول المريضة إللي ممكن تتخيّل ده.. ف ده من وحي خيالهم.. أو بسبب نظرية مؤامرة مسيطرة عليهم.

- تقصدي مين يا ميّادة بالعقول المريضة؟ يا ترى تقصدي رئيس القسم بتاعك ولّا.. ولّا تقصديني أنا؟

- أقصد أيّ حد بيفكر برجعيّة.. أي حد بينفذ قوانين الروتين من غير حتى ما يدّي مساحة لعقله للتفكير فيها أو محاولة تسهيل

الأمور وكإنه قرآن نازل من السما..

تصمت للحظات محاولة شحذ كل ما تبقى من تركيزها وتُكمل:

- أقصد أي حد يا دكتور مُتخيّل إن أسلوب الحكم أو الإدارة بالحديد والنار هو الأسلوب الأمثل وإنه كده وصل لأعلى درجات النجاح، أقصد كمان الظالم إللي كل يوم بيفتري ويعنيه مش شايفة القهر والغُلب في عيون إللي بيظلمهم كل دقيقة وكل ثانية.
- وإيه كمان يا دكتورة؟
- مفيش.

ينهض أسعد من مقعده، سائرًا بخطوات بطيئة وعاقدًا ساعديه خلف ظهره ليصل إلى المقعد المُواجِه لميّادة ويقف خلفه، مُستندًا إلى ظهر المقعد بمعصميه مُصوِبًا لها نظرات لا تخلو من قسوة متعمّدة:

- بقالك هنا أد إيه يا دكتورة؟
- تقريبًا عشر دقايق.
- أقصد بداية تعيينك في المستشفى؟
- حوالي سنة.
- قبل ما تيجي يا دكتورة ياللّي بتتكلمي عن الظلم والجبروت، من حوالي أربع سنين المستشفى إللّي إنتي فيها دلوقتي كانت

مجرد خرابة. القطط والحشرات والكلاب جواها كانت أكتر من الدكاترة والعيّانيين. الإهمال كان طايل كل شبر فيها. لو مريض في يوم عمل عملية ولو غرزتين كان بتتنقل له عدوى وأغلبهم مات بسبب التلوّث. مفيش ركن في السقف تبصيله إلا والعناكب معشِّشة وبانية بدل البيت بيوت.. نُص الدكاترة مكانش بييجي والنص التاني كان بيمضي للنص الأولاني ويقضّوا ساعتين ويمشوا ويقبضوا آخر الشهر. مستشفى في مكان زيّ ده بالحجم ده كان زيّ قلِّته، بل إن قلِّته كانت أحسن بكتير. الميزانية إلّي كانت بتتصرف للمستشفى من وزارة الصحة كانت بتتنَهب من المدير إلّي قبلي والحاشية بتاعته. طبعًا ما تعرفيش الناس كانت مسمية المستشفى دي إيه؟

لم ينتظر إجابة ويواصل:

- جبل المطاريد.. أيوة بالظبط زيّ ما سمعتي كده. علشان كانت تقريبًا مهجورة، وكذا مرة حرامية ومجرمين البوليس يقبض عليهم وهُمّ مستخبيين هنا.

يترك أسعد مكانه ويعود ليجلس على مقعده خلف مكتبه.. ويُكمِل:

- لمّا كنت نائب مدير مستشفى المنيا العام وصدر قرار الوزارة بنقلي للقاهرة وترقيتي لمدير المستشفى دي.. كان قُدّامي

خيارين مالهمش تالت؛ يا إما الوضع يستمر كما هو عليه أو أصلح الحال. ومش هكون ببالغ ولا هعيش دور الملاك وأقول إنه كان الإصلاح لمجرد الإصلاح كان هو هدفي الوحيد، زيّي زيّ أي إنسان طموح، بفكر إن يكون ليّا مستقبل أفضل وفي نفس الوقت الحال المايل ما بيعجبنيش.. إزاي أكون مدير لمستشفى مجرد أطلال أو خيال مستشفى، مستشفى المفروض مُهمتها الرئيسية خدمة الغلابة إللّي ما يقدروش يروحوا يدفعوا كشف دكتور بـ ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه. الحل الوحيد كان إني أبنيها من جديد وكان كل قرش بي جيلنا من الوزارة كنت بجدّد بيه قسم أو بشتري بيه جهاز جديد، والأكتر من كده إني صمِمت أعمل غرفة عناية مُركَّزة علشان الغلابة يلاقوا مكان يتعالجوا فيه بدل ما يموتوا وهم مش لاقيين مكان يعملوا فيه عملية صغيّرة زيّ الزايدة أو البواسير، أو حتى يخيّطوا جرح صغير. الأكتر من كده إني طلبت من الوزارة ميزانية إضافية، تعرفي ليه يا دكتورة؟

مُجددًا لم ينتظر إجابة منها ويُردِف:

- علشان أزوِّد بدلات الدكاترة، علشان لمّا أجبرهم يوصلوا في ميعادهم ويمشوا في ميعادهم يبقى عندهم الحافز إنهم يعملوا كده ويهتموا بكل عيّان غلبان بيكشفوا عليه.. إنتي مرتبك كام يا دكتورة؟

- ٤٢٠٠ جنيه.
- تعرفي مرتب إللّي زيّك في مستشفي زيّ المستشفى دي كام؟

ولا يزال يتابع دون ترقب إجابة منها:

- طبعًا ما تعرفيش لإنك ما اشتغليش في وزارة الصحة قبل كده، ١٦٠٠ جنيه يا دكتورة. والدكتور إللّي كان عاوز مُرتَّبه يزيد لازم يتنقل لمناطق نائية زيّ الصحرا أو سينا مثلًا علشان يقبض إللّي هو بيقبضه هنا وهو عايش وسط أهله. كمان عملت قسم للكشف بأجر مُخَفَّض وده بيزود موارد المستشفى. المستشفى دلوقتي بيستقبل يوميًا ٢٠٠٠ حالة، يعني في الشهر ٦٠٠٠٠ حالة وقبل كده لو كان دخلها ٤٠٠ حالة في الشهر كان يبقى إنجاز.. دخل المستشفى عدَّى المليون جنيه في الشهر الواحد. لو ما كنتش حازم وحاسم وفي نفس الوقت مدقَّق في كل كبيرة وصغيرة ما كانش ده بقى حالنا. مش كل حاجة شايفاها من بره يا دكتورة تبقى صح. وعمومًا لا في خير وطيبة مطلقة ولا في شر وظلم مُطلَق.. كلها مجرد نسب.

لم تستطع ميّادة إخفاء دهشتها من الحوار و هذا الصراع الذي تَولَّد بداخلها بسبب ما تؤمن به وما رأت وبين ما سمعت، وبعدما شحذت تركيزها مرة أخرى تسأله:

- وإسعاد إللّي إنت - أقصد حضرتك - مبهدلها ومحسّسها إنها

خدّامة مش ممرضة قديمة وعندها خبرة مش قليّلة؟!

- نسيتي تقولي وإللّي بتدعي عليّا ليل نهار، ونازلة شكوي فيّا للدكاترة والعيِّانين وحتى الفراشين.. صح؟ّ!

لم تـ ستطع ميّادة الرد من شدة الخجل ويُكمِل هو:

- أبويا كان راجل صعيدي.. كل إللّي كان بيملكه في حياته قيراطين كان زارعهم قصب، وربّانا منهم أنا وإخواتي -الله يرحمه- وشفت معاناة أمي اللّي يا دوب كانت بتعرف تقرا اسمها بالعافية بعد أبويا ما اتوفى في تربيتنا، وشوفتها بعيني وهي بتنام جعانة علشان إحنا ننام شبعانين. أما إسعاد فهي ممرضة ممتازة ومن الناس إللّي بعتمد عليها في حاجات كتير.....

ومع كل حرف ينطق به أسعد تزداد دهشة ميادة ويزداد معه إصغائها ويُكمِل هو:

- جوزها كان عامل يومِيّة في المعمار.. يعني رزقه ورزق بناته الأربعة يوم بيوم، ومات في حادثة شنيعة على الطريق الدائري. طبعًا الحمل تِقل عليها ومسئولية البنات ومصاريف المدارس والحياة. بعد وفاته بكام شهر، إسعاد غفِّلت أمين الخزنة وسرقت من الخزنة حوالي عشر آلاف جنية. أمين الخزنة اكتشف القصة بعدها بخمس دقايق وما كانش في أيّ إحتمال

غير إن تكون إسعاد هي إللّي عملت كده.. وجِه قاللّي، وكان ردي وقتها "اعتبر الفلوس موجودة " وخرجت لأقرب فرع بنك وسحبت الفلوس من حسابي ورجعت إدِّتهم لأمين الخزنة، لإنه طبعًا كان من حقُّه إنُّه يبلغ النيابة. مع كل ده ما كُنتش مصدَّق بشكل كامل لحد ما واجهت إسعاد وأنكرت في الأول، وبشويّة ضغط وتهديد اعترفت. كان ممكن جدًا تتحوّل للتحقيق ومنه للنيابة ومنه لمحكمة كان هيكون أقل حكم فيها ٣ سنين، وبناتها وقتها هيتشرّدوا بمعنى الكلمة. الموضوع ده فضل سر بيني وبينها وبين أمين الخزنة علشان الفضيحة جوه المستشفى من ناحية.. والمحاسبة القضائية من ناحية تانية. طبعًا إسعاد بعدها رجّعت الفلوس. صحيح ظروفها كانت صعبة والشيطان لعب بدماغها.. بس لو سيبنا كل واحد يمر بظروف صعبة يسرق مش هنبقى عايشين في بلد. وداريت عليها وفضَّلت إني أعاقبها بطريقتي علشان تتعلم الدرس، وفي كل مرة بيتقرص عليها تفتكر إللّي هي عملته وما تعملوش تاني ولا حتى تفكر مجرد التفكير إنها تعمله تاني. طبعًا مش محتاج أقول إني عملت ده علشانها.. لأ.. علشان أيتام مالهمش أي ذنب إن أبوهم مات في حادثة وأمهم سرقت واتسجنت، وإللّي ممكن حد من الأيتام دول يكون في يوم من الأيام دكتور زيّنا كده يا دكتورة..

كاللكمات العنيفة كان هو وقع كلماته المتتالية التي لطمت كل جزء فيها.. وانهارت قواها تمامًا، لم تجد كلمة واحدة تُسعفها أو تستطيع بها الرد.. ولم يكن منها إلا أن هبّت واقفة واستدارت لتخرج من الغرفة في محاولة منها للهروب بأيّ شكل من الأشكال، وعند عتبة الباب تحديدًا وقبل أن تُمسك بمقبضه لتفتحه، تسمع أسعد يقول:

- وإنتي خارجة ابقي بُصّي على ملف لونه أخضر على مكتب إيناس، هتلاقي فيه كَمّ قرارات مديرين الأقسام إللّي أنا معدّل فيها بقدر الإمكان علشان بحاول أكسر الروتين بس بشكل لائق وبهدوء ومن غير ما يحسّوا لأن الهرم الإداري يا دكتورة على قد ما هو مليان عيوب بس له بعض المزايا، وما ينفعش نهدمه بالكامل لأن ساعتها هيكون أول النادمين، هُمّ نفسهم إللّي نسفوه من أساسه...

استمعت ميّادة إلى بقية الحديث وهي لا تزال متوجهة نحو الباب وبمجرد أن انتهى أسعد من حديثه تنطلق خارجه..

لم يتوارد لذهنها مطلقًا ما دار بينها وبين أسعد من حوار، وبالرغم من إيمانها الدائم -والذي دعّمه أكثر لديها والدها- بأن وراء كل شيء نراه شيء آخر تمامًا، قد يكون هو الحقيقة عينها أو جزء كبير منها. لكنها لم تتخيل مطلقًا بأن المشهد الذي اعتادت عليه يوميًا

في المستشفى وراءه مشهدًا آخر لا يعلمه أحد غير الله.. ثم قلة قليلة جدًا من الناس....
حقيقة غائبة.

تقترب الساعة من السادسة مساءَ، ويبدأ آدم بوضع نايه في صندوقه مُستعدًا للعوده لمنزله، و يسحب عصاه من جانبه مُتكئًا عليها لينهض مُتأبِّطًا صندوقه تحت إبطه الأيسر..
يسير في طريقة المعتاد نحو حارته، ولم يكن يعلم بأن هناك مَن يتبعه خطوة بخطوة عن بُعدْ.
بالطبع لم يكن أسعد يعلم لماذا ارتدت ميّادة تلك الثياب الأقل من العادية والحذاء الرياضي في ذلك اليوم تحديدًا، والذي علّق عليه أسعد بأنه زهد في الحياة، بأنها كانت قد عقدت قرارها بتعقُّب آدم لمعرفة أين يقطن وكيف هي حياته، وخاصة بعد أن همس إليها البعض بأنه يجني قرابة الـ ٣٠٠ جنيه يوميَا، أي ما يُعادل تسعة آلاف جنيه شهريًا وهو أكثر من راتب طبيب، بل وزير.
في أثناء تعقُّبِها له في هدوء تام، تتخيل أين يسكن ويجول بخاطرها ربما يقطن منزل فاخر يتناسب مع دخله الذي ذُهلت عندما سمعت به.. ربما أيضًا لديه سيارة بسائق خاص نظرًا لأنه لا يستطيع الإبصار.. تواردت إليها أفكار كثيرة متضاربة وهي تتعقَّبه من شارع إلى شارع ومن حيّ إلى آخر.. وبالطبع لم تنسَ أن تُبلِغ

والدها بأنها سوف تتأخر عن ميعادها المعتاد بعض الوقت لإنشغالها ببعض العمل..

يصل آدم إلى حارته -حارة المناديلي- ويمر على مطعم ألف ليلة وليلة ليأخذ طعامه المعتاد ويعاود السير وكل مَن يجده في طريقة يُلقي عليه التحية ببشاشة وسعادة إلى أن يصل إلى نفس ذات الصيدلية الوحيدة ويستقر بها قليلًا ثم يصعد إلى مسكنه.. بالطبع لم تستطع ميّادة السير وراءه بمجرد وصوله للحارة لأنها بشكل أو بآخر رأت أنها ستلفت الإنتباه، ولكن ظلَّت تتابعه من بعيد.

في الحقيقة كانت تتابع كل تفصيلة بمنتهى الدقة والتدقيق. ظنّت أنه ربما يزور أحد من أقربائه وسيخرج مُجَددًا.

مرت حوالي النصف ساعة ولم يحدث أي جديد يُذكر إلى أن رأت سيدة تحمل طفلًا وتدخل نفس ذات المنزل المتهاوي تقريبًا وتختفي بداخله قرابة العشر دقائق ثم تظهر مُجَددًا وتدخل الصيدلية المجاورة للمنزل، وبعدها تغادر الحارة. ثم تشاهد رجل وامرأة يدخلان نفس المنزل ليستقرا فيه قليلًا.. ثم ينعطفان يمينًا نحو الصيدلية عينها ثم يغادران. تكرّر هذا المشهد عدة مرات ربما سبع مرات والمشهد يتكرّر بنفس التفاصيل ولا يظهر آدم في المشهد على وجه الإطلاق.. انتظرت قرابة الساعتين والفضول يسيطر على كامل تفكيرها..

تقرر بعد لحظة تفكير قصيرة -وبعد أن غربت الشمس- أن تقترب أكثر من منزل آدم، وبالفعل فعلت والمشهد لا يخلو من بعض النظرات الموجّهة إليها سواء من أصحاب المحلات أو الجالسين على

المقهى- باعتبارها شخص غريب عن الحارة ولم يعتادوا عليه. ربما ما خفَّف من حدة الأمر على أهل الحارة تلك الملابس الأقل من العادية التي كانت ترتديها وظنَّوا بشكل أو بآخر أنها متوجهة للمنزل. وبهدوء تام تدخل صيدلية عم خليل وتلقي عليه التحية:

- سلام عليكم.

يرد دكتور خليل التحية بإبتسامة:

- و عليكم السلام.
- لو سمحت كنت بدوّر على دوا ناقص.
- اسمه إيه؟

كان لا بد أن تتظاهر بأنها بعيدة كل البَعد عن مجال الطب حتى لا تُكتَشف حقيقتها، فتسأل متلعثمة:

- هو دوا لأخويا بياخده علشان المخ.. كبسولة نصها أزرق ونصها أبيض.. اسمه أوكس.. أوكس..
- أوكسيبرال؟
- أيوة هو ده.. ممكن علبتين؟
- إللّي موجود عندي علبة واحدة.
- بكام لو سمحت؟
- ٣٥ جنيه.

عبت بجيوبها قليلًا لتُخرج المال، لكنها تفاجأت بأن كل تملكه هو عشرون جنيهًا وقد نست النقود في حقيبتها التي تعمّدت ألا تأخذها في هذا اليوم حيث أنها لا تمتلك إلا الحقائب الفاخرة.. ويلاحظِ دكتور خليل المشهد ويوجِّه لها كلامه:

- معلش يا بنتي بتحصل معانا كلنا.. بقولك إيه البيت إللّي جنبي وفي الدور الأخير، الدكتور ساكن.. إلحقيه قبل ما ينام هيدِّيلك ورقة إنزليلي بيها وهدِّيلك علبة الدوا.. ما تقلقيش هشيلهالك على جنب لحد ما تنزلي.
- ورقة إيه إللي هرجعلك بيها؟!
- في ناس يا بنتي غلابة كتير في الدنيا وفي حيّ زيّ بتاعنا ده الناس غلابة بزيادة والمرض هاريها، لا معاها فلوس كشف ولا فلوس تجيب دوا.. وما تاخديش على خاطرك مني بس لمّا شفتك بتدوّري على فلوس ومش لاقيَة.. قولت أساعدك..
- أنا بس...

ويقاطعها دكتور خليل:

- يا بنتي ما تبرريش، أنا عارف الحال والدنيا الصعبة.. إطلعي بس للدكتور هو هيبعت معاكي ورقة مكتوب فيها اسم الدوا ويمكن يقولك على دوا أحسن من الدوا إللّي إنتي عاوزاه وهديهولك من غير ما تدفعي مليم واحد، والفلوس إللّي معاكي

ابقي إشتري بيها عشا لأهل بيتك وإنتي راجعة.

- دوا..! ومن غير فلوس!!
- الدكتور كل يوم وهو راجع بيسيب عندي ٢٠٠ وساعات ٣٠٠ جنيه علشان الغلبان العيّان ييجي ياخد الدوا ويمشي..

تنزل كلمات خليل عليها كمطرقة حديدية ضربت رأسها بعنف وبلا أدنى حد من الشفقة. لم تصدق ولم تتوقع ولم يخطر لها ببال ما قيل لها، وقبل أن تغادر الصيدليه تسأل خليل:

- هو الدكتور ساكن هنا ولا بييجي شويّة بس وبيمشي؟

وتُردِف مُستدرِجة محاولة تبرير سؤالها الذي يبدو غير منطقي:

- أنا بسأل بس علشان أبقى أجيله بعد كده لو احتجتله.
- ساكن يا بنتي.. بس بينام بدري زيّ الفراخ.

بالطبع لم تصعد ميّادة لآدم وتتوجه مباشرة لخارج الحارة هائمة على وجهها لا تصدق ما حدث.. لم تصدق كل أحداث اليوم بداية من حوار أسعد وانتهاءاً بما سمعته من دكتور خليل.

كانت تجُرّ خطواتها بصعوبة، حالها كان أشبه بحال من ضَلَّ طريقه، أو بالأدق كانت كالتائهة في ممرات الزمن الطويلة.

الدكتور نبوي كعادته يجلس في التراس المواجه للنيل.. عين يقرأ بها والأخرى تتابع العابرين في الشارع مُنتظرًا قدوم ميّادة والتي تأخرت بعض الشيء.. ينظر في ساعته السويسرية الصُنع بطريقة تدل على التوّتر إلى أن رآها قادمة.. فيهدأ قلبه قليلًا ويقوم ببطء ليكون في انتظارها عند باب الشقة؛ حيث كان يعاني من بعض الآلام في فقرات الضهر.

ما أن تضع ميّادة مفتاحها لتفتح الباب، تجد والدها يفتحه من الجهة المقابلة من الداخل، مُبادرًا إياها بعدة تساؤلات :

- إيه يا ميّادة.. فينك؟ وبتصل عليكي موبايلك غير متاح. وإيه يا بنتي إللّي لابساه ده؟! ومالك زيّ المضروبة على دماغك كده؟!.. ما تردي يا بنتي.. ريّحي قلبي.
- أنا كويسة وقدامك أهو زيّ الفل.. معلش موبايلي فصل شحن وما عرفتش أكلمك..

تصمت قليلًا لتلتقط أنفاسها وتُكمِل:

- معلش يا بابا هدخل آخد دش سريع وآجي أتكلم معاك شويّة..

وتُكمِل وهي تهمّ باحتضانه:

- محتاجه أوي أتكلم معاك..

يُربِّت الأب على كتف وليدته ويرد:

- مستنيكي يا ست البنات...

تُفتَح مقابض المياه الساخنة لتنهمر المياه فوق رأس ميّادة كالشلال الذي لم يترك خلفه كبيراَ أو صغيراَ إلا و قد خلخله من قواعده، لتستقر فترة طويلة بلا حركة واحدة تُذكر.. يمر أمام عينها شريط كامل لأحداث اليوم الطويل الذي شهدت أحداثه، الحدث وراء الحدث.. ومن إندهاش الى إنبهار، وبين توتر وإنكار. لا تزال لا تحرك ساكنًا إنما كانت تريد أن تترك المياه تصطدم برأسها لعلها تطرد بعض من تلك الأفكار التي تضغط عليها بشدة من الداخل، تدعو بأن تكون داخل إحدى الأحلام التي لا تباغت المرء إلا قليلًا، إلى أن تسمع صوت نقرات على الباب يتبعها صوت والدها:

- إنتي كوّيسة يا ميّادة؟!
- آه.. آه يا بابا أنا تمام.. خارجة حالًا.. خلاص خلصت...

على منضدة مستديرة بتصميم فرنسي كلاسيكي وُضِع فنجانين مزخرفين مملوءين بالشاي الإنجليزيّ الفاخر، الذي تفوح رائحته الذكية مُعطرة المكان.. يمسك دكتور نبوي واحدًا منهما، مناولاً إياه لميّادة:

- إشربي يا بنتي.. مفيش أحلى من فنجان شاي إنجليزيّ بعد يوم طويل من التعب.

ويتناول هو الفنجان الآخر ويرتشف رشفة، مُصوِبًا نظرة نحو ميّادة:

- سامعك يا دكتورة.
- والله منا عارفة أقول إيه ولا أبتدي منين..
- إبتدي من أي حته عاوزاها.

وهي تمسك فنجان الشاي ويدها ترتعش قليلًا وترتشف رشفات صغيرة متتالية وتقصّ على والدها ما حدث بالتفصيل الذي لم يكن مُملًّا على وجه الإطلاق بالنسبة للأب الذي ظلَّ مُنصتًا قُرابة الساعة، تاركًا ابنته تفيض بكل ما في جعبتها..
بعد أن تنتهي من رواية الأحداث حدث وراء الآخر تصمت قليلًا بعد أن وضعت وجهها داخل راحتيها، لتسترسل:

- ما تعرفش يا بابا قد إيه أنا متلخبطة ومش فاهمة أي حاجة.. معقول كل حاجة كنت شايفاها مش حقيقية؟! للدرجة دي

الدنيا صعبة ومعقَّدة. أسعد إللّي الكل بيكرهه بعد ما سمعت كلامه لقيت عنده حق في حاجات كتير. بتاع الناي إللّي ساكن فوق سطوح عمارة تقريبَا قايلة للسقوط وبيدِّي كل إللّي بيكسبه تقريبَا حسب ما فهمت للغلابة. هو ده بجد؟! ولا أنا بحلم؟ ولّا دول بيمثلوا؟!.. والتاني إللي بيبيع الشاي ببلاش!! ما بقيتش متأكدة من حاجة.. الحقيقة فين وإيه الأكيد إللّي في الدنيا..

تصمت وكأنها تعطي إشارة للأب ليَعطيها رأيه فيما سمع...
يمسك الأب بظهره محاولًا النهوض من مقعده مُتَّجهًا نحو الحائط وقد لفت انتباهه بأن تابلوة السفينة وسط بحر هائجة تبدو من الرسم أنها تتمايل من شدة الرياح وارتفاع الأمواج وتلاطمها، قد اعوجّ قليلًا عن وضعه المستوي والذي قد اقتناه من دار سوثبي - أحد أشهر المزادات بباريس- منذ عدة سنوات، ليَمسك بطرفه ليعيد ظبطه ويعود مرة أخرى لمقعده ويتحدث:

- إللّي شوفتيه النهاردة دي الدنيا الحقيقية يا بنتي.. الدنيا إللّي مفيش فيها حاجة اسمها أكيد ولا هيكون.. الأكيد والمؤكد الوحيد إننا بنتولد وهنموت.. غير كده مفيش لا حقايق مؤكدة ولا عنوان ثابت. المرتاح دايمًا يا ست البنات إللّي بيشوف الصورة من برّه من غير ما يدقّق في أي تفاصيل، وده إللّي كنت يحاول أزرعه فيكي من زمان لولا والدتك الله يرحمها.. التابلوة إللّي قمت عدِّلته من شويه صُغيّرين ده كتير ممكن ناس كتير

يبصّوا عليه، في منهم هيبّص ويمشي وبغض النظر عجبته اللوحة أو لأ، مش هتشغل باله كتير.. وبمجرد ما يلتفت عنها أو يشوف لوحة تانية هينسى أصلًا إنه شافها.. وفي منهم -ودول مش كتير- إللّي هيفكَّر في تفاصيلها وإزايّ اترسمت بالدقة دي وكإنك شايفة الصورة لايف وهيحاول يدقّق في الإمضاء إللّي عليها علشان يعرف مين رسمها وممكن يبتدي يدوّر على لوحات لنفس الرسام.. ونوع تالت -ودول قلة قليلة أوي من الناس- إللّي تفكيره بيوصل إنه بيعيش المشهد بالكامل ويسرح بخياله ويسأل نفسه: يا ترى السفينة دي غرقت ولا براعة القبطان وتدبير الأقدار أنقذتها؟ ولو غرقت يا ترى كل إللّي عليها ماتوا ولّا في حد قدر يوصل للشط أو مركب تانية لحقته.. وإللّي تعبك النهاردة إنك مش بس دقَّقتي في التفاصيل، لا إنتي دخلتي جوه تفاصيل التفاصيل.. ياما من وإنتي صغيّرة وأنا بحاول أعلمك إن دايمًا ورا كل مشهد شايفينه مشهد تاني خالص، وممكن جدًا يكون مختلف تمامًا.. إللّي لخبطك كده إنك عشتي -زيّ ما بيقولوا- ما وراء الحدث أو كواليس الأحداث، وللأسف قُليّل أوي من الناس بيعيشه، وحتى لو عاشُه مش بيقدر عادة يتعامل معاه أو يستوعبه..

نزع عويناته الخاصة بالقراءة وأخد يُربِّت بها على إحدى ركبتيه ويُكمِل:

- أسعد حكايته غريبة بس مقبولة.. زيّه زيّ أي شاب عنده

طموح وفي نفس الوقت شريف.. يمكن ما عندوش فن الدعاية لنفسه أو يمكن يكون قاصد كده لإنه شايف إنه مش محتاج دعاية، وممكن برضو يكون من الناس إللّي ما بتعرفش تعمل هالة حواليها.. وإللّي زيّ ده ممكن في يوم من الأيام يحقَّق إللّي هو عاوزه.. لا مش ممكن.. ده أكيد.. صحيح مفيش كتير زيّه خصوصًا في طريقة تعامله مع إسعاد وأعتقد إنه صادق تمامًا في إللّي قالهولك وأغلب ظني رايح ناحية إنه حابب أو في جزء من شخصيته بيحب إنه يكون هو نفسه القانون، وده أحيانًا بيكون صح وفي كتير من الأحيان بيكون غلط، زي السلاح ذو الحدِّين اللي لو ما كانش مُحارب محترف بيستخدمه ممكن يموِت بيه عدوه وكمان نفسه.. بقولك إيه، أنا جعت.. هتسبيني لحد ما أموت من الجوع؟

- آسفه والله يا بابا..

تقولها وهي تنهض متوجِّهة للمطبخ ثم تردف:

- حالًا، الأكل هيكون جاهز..

وتلتفت مُجَددًا إلتفاتة المُتذكِر لشئ هام:

- و بتاع الناي يا بابا؟

- يا بنتي هموت من الجوع، حرام عليكي، إعمليلنا ساندوتشين صُغيّرين ونكمل كلام وإحنا بنَّقنق..

بعد أن أعدت الطعام، تناول أباها شطيرة وعلى الفور يقضم قضمة منها ويقول:

- حتى الساندوتش إللّي ما فيهوش أي فن نَفَسِكْ فيه حلو.. طالعة لوالدتك الله يرحمها.. لو كانت أكلتني عيش حاف كنت أحس إني باكل خروف متسَوّي على نار هادية.
- لا يا سي بابا، ده كده بقى مش نفسها حلو.. ده حب.
- أيوة صح.. هو الحب.. الحب إللّي يخليكي ما تشوفيش عيوب ويخليكي تتقبَلي أي حاجة من حبيبك أيّا كانت وتسامحي وتغفري، وهو برضو إللّي يخليكي تتجنبي التفكير في حاجات كتير منطقية.. الحب بيخلِّي أي حد أعمى حتى لو كان نظره ستة على ستة، مش قادر يشوف غير الحاجات الحلوة إللّي في حبيبه بس..
- وبعدين معاك يا دكتور؟ هو ده وقت رومانسية وتحليل نظريات الحب!!.. مش كنت بتقول جعان؟ وبعدين ما قولتليش رأيك في بتاع الناي.
- قبل ما أقولك.. أخوكي اتصل الضهريّة النهاردة وبيسلم عليكي وأحواله زيّ الفل والحمد لله.
- طيّب الحمد لله.. ربنا يوفقه، لو يعرف قد هو وحشني وقد إيه محتاجاله.
- ربنا ما يحرمكم من بعض ويقرّب البعيد ويريّح المحتار.

- يا رب..

ترمقه بنظرة أنثوية يملؤها المكر و تسأله:

- بابا.. هو أنا فاهماك صح؟
- مش فاهم.
- إنت بتحاول تتجنِّب الكلام في موضوع الولد بتاع الناي؟ ولّا بيتهيألي بس؟!
- مش بتجنِّب.. بس بفكر.. وما بفكرش فيه على قد ما بفكر فيكي.. إيه الغريب إن حد يلاقي شحات أو حتى مش شحات ويشغل باله بالطريقة دي لدرجة إنه يمشي وراه علشان يحاول يعرف كل حاجة عنه؟!..

ويصمت قليلًا ثم يتابع حديثه مُتنهِّدًا:

- أنا قلتلك على أسعد إنه موضوع غريب بس مقبول.. إنما الولد بتاع الناي.. بالمناسبة اسمه إيه؟
- معرفش.. بينادوله بالدكتور.

ويواصل حديثه:

- الدكتور!! طيب.. موضوعه غريب ومش مقبول ولا مفهوم على الأقل بالنسبالي.. بس إللّي زيّ ده يا إما وراه موضوع أكبر من أي حد إنه يفهمه.. هربان من حاجة مثلًا.. أو هو فعلًا إنسان

نادر الوجود.. أو فهم الدنيا على حقيقتها.. وممكن كلهم مع بعض..

- هربان!! هو ممكن يكون مُجرِم ومُتخفّي مثلًا؟
- أنا بقول ممكن.. والهربان مش شرط أبدًا إنه يكون بيهرب من جريمة.. في ناس كتير بتهرب من الحياة نفسها.. أو حتى أحيانًا من نفسها.
- يا بابا ده عايش في أوضة فوق سطح عمارة تقريبًا هتقع وبيتبرع بكل فلوسه للفقرا علشان الدوا وفي نفس الوقت فنان، لا مش فنان.. ده عقبري..

يُعقِّب بحدة:

- ميّادة.. مش ملاحظة إن الموضوع واخد أكبر من حجمه معاكي؟

قال تلك الكلمات بينما تدور في ذهنه قصة عازف الناي كالقطار السريع الذي لا يستوقفه شيء ولولا رغبته في تشتيت عقل ميّادة عن الحديث عنه، لكان قضى اللّيل بطوله في الحديث عنه وتحليل ما سمع..

ويُكمِل:

- قومي نامي شويّة وبكرة تقومي أفضل.. هتعرفي تنامي؟! ولّا آجي أحكيلك حدوتة زيّ زمان؟

- حدوتة..؟! مش كفاية كميّة الحواديت إللّي شوفتها النهاردة!

تنهض مستديرة متجهة إلى حجرتها بينما يُتَمتِم الأب سرًا:

- أومال لو عرفتي الحدوتة التالتة كنتي عملتي إيه بس؟.. ربنا يستر.

شهر مايو ٢٠١٣

نغمات الناي كعادتها تدوي، سابحة عبر الأثير والأمور تسير بطريقة طبيعية، والمختلف في الأمر هو دكتور نبوي الذي استقر بجانب شجرة ضخمة في الشارع الجانبي للمستشفى حيث سمح له المكان ألّا يلاحظه أحد من ناحية وأن يرى آدم بوضوح من ناحية أخرى..

يرى ذلك الشاب الطيب، تبدو ملامح الخير جليّة على قسماته، ذو الشعر البني الفاتح يتحوّل لذهبي مع إنعكاس أشعة الشمس عليه، ووجه أبيض دائري، وأذن مستديرة، وشفتان ورديّتان، وخدين مُمتلئين بعض الشيء، وذقن بارز..

ينظر لآدم وهو مُنهمك في عزفه وكأنه قد أبحر بعيدًا مع نغماته، بعيدًا عن عالمنا وتركنا نحن عالقين به، يعزف وهو يسبح في بحر من النغم غير مُدرك لما حوله من مؤثرات كإزعاج أو حركة مُشاة..

من وقت لآخر يتوجه له البعض لوضع بضع النقود. لم ينتبه دكتور نبوي لنفسه وهو يُدندن مع عزف ذلك الشاب البسيط المنظر، العميق التأثير..

آدم كان يعزف اللحن الذي طالما عشقة الدكتور نبوي -أما براوة لنجاة الصغيرة- كانت النغمات رائعة والطقس المعتدل ساعد على استمتاعه أكثر باللحن.. وظل هكذا لبعض الوقت لم يدرِ مقداره، وبعدها توجّه لسيارته واستقر بها ثم أشار لسائقه بالمغادرة.

تعود ميّادة في ميعادها المعتاد لتجد والدها في إنتظارها كالعادة:

- مساء الخير يا بابا يا جميل..
- مساء الجمال يا ست البنات.
- هاخد شاور سريع وأحضّر الغدا.
- مستنيكي.

بمجرد انتهاءها من الإستحمام يرن جرس الانتركوم فتهرع إليه ميّادة مجيبة:

- إزيّك يا دكتورة.
- إزيّك إنت يا عم أحمد.
- الحمد لله في نعمة، في واحدة ست غلبانة بتقول إنك مستنياها.
- خمس دقايق بالظبط وخليها تطلع.
- أوامرك يا دكتورة.

تتوجه بحديثها لوالدها بعد أن تغلق سماعة الديكتافون:

- بابا.. في ست عاوزاك بعد إذنك تقابلها معايا.
- مين دي؟!
- هتعرف حالًا.

- طيب أقوم ألبس أي حاجة؟
- لا الموضوع مش مستاهل.. الروب إلّي عليك جميل ولا بدلة الملك فاروق في عِزُه.

تعلو ضحكات دكتور نبوي وتُكمِل ميّادة:

- هدخل بسرعة ألبس علشان أقابل الست.

تخرج ميّادة من غرفتها وقد ارتدت ثيابها ويدق جرس المنزل.. تتوجه ميّادة لفتح الباب.. مُحدِّثة ضيفتها:

- تعالي يا أم أحمد.. إتفضلي.

بأدب ونظرات مصوّبة تجاه الأرض وبعد أن خلعت حذائها.. دخلت أم أحمد في نفس الإتجاه الذي تشير إليها ميّادة لتتجه إليه.. تجد د.نبوي جالسًا.. فتلقي التحية ويرد عليها بتواضع بالغ لا يخلو من إستغراب شديد للمشهد وتجلس ميّادة وتشير لأم أحمد بالجلوس..

تبادر ميّادة الجميع بالحديث:

- بابا.. أم أحمد كانت مريضة عندي من أيام مستشفى الجامعة و بعتبرها حد قريّب مني أوي.

"أهلاً يا أم أحمد"

(هكذا ردَّ الوالد مُتلهفًا لمعرفة ما يدور)

تُردِف ميّادة:

- اتفقت معاها بعد الشغل تروح للولد بتاع الناي وتعمل إنها عيّانة -بعد الشر عنها طبعًا- وقولتلها تقوله إنها بتشتكي من نغزة في جنبها اليمين ورقبتها دايمًا واجعاها.. وبعد ما تمشي من عنده تيجي تقوللي إللّي حصل.. وتعمّدت إنها تقوللي هنا مش في المستشفى علشان عاوزاك تسمع معايا، بعد إذنك طبعًا..

لم ينبس الدكتور نبوي ببنت شفة وبرغم عدم تقبّله الكامل للأمر ولكن غلبه الفضول ليعرف ما القصة..
وتوجه ميّادة حديثها لأم أحمد:

- إحكيلنا بقى إيه إللّي حصل وبالتفاصيل.. كل التفاصيل يا أم احمد.
- حاضر يا دكتورة.
- سامعينك.
- مشيت على الوصف إللّي إديتهولي يا دكتورة ووصلت هناك وطلعت لرابع دور إللّي هو السطح.. خبَطتْ على الباب براحة.. سمعت صوت من جوه بيقول "إتفضلي".. الباب كان موارِب.. دخلت.. لقيت ست وابنها وراجل عجوز وكان باين من قعدتهم إنهم ما يعرفوش بعض.. فضلت واقفة لحد الراجل العجوز ما قاللي "اقعدي يا بنتي.. الدكتور عنده حد جوه

هيّخلص وأنا هدخل وبعدي أم عبير وابنها وادخلي إنتي وراها"..

تصمت في محاولة منها لإبتلاع ريقها ثم تسأل ميادة:

- لو ما فيهاش إساءة أدب، ممكن كوباية ميّا ساقعة؟
- طبعًا.. طبعًا.

تمضي ميّادة وتعود بكوب من الماء البارد وزجاجة مياه غازيّة بينما يتزحزح دكتور نبوي بمقعده محاولًا إراحة ظهره قدر إستطاعته ويقول:

- وبعدين يا أم أحمد؟

بعد أن تروي عطشها تُكمل:

- المكان ما كانش فيه كراسي.. أربع شلت بس على الأرض.. قعدت واستنيت لحد ما جه دوري...

يقاطعها النبوي:

- مفيش كراسي؟! ترابيزات؟! تليفزيون؟! ستاير؟!
- لأ خالص يا سعادة البيه.
- أومال كان فيه إيه؟.. أوصفيلنا المكان براحة يا ست أم أحمد.
- ما كانش فيه أي حاجة غير الأربع شلت وحصيرة صغيّرة في

النص وستارة بـيتهيألي إنها مداريّة الحمام.. وصورة على الحيطة.
يقاطعها دكتور نبوي مُجَدداً:

- صورة إيه؟
- الصراحة مش فاكرة وكمان الإضاءة كانت ضعيفة خالص وأنا نظري زيّ ما حضرتك شايف على قدَّه شويّتين..
- مش مهم، كمِّلي كمِّلي..

تتابع ميادة المشهد وتتعجب من رد فعل أبيها وتفاعله واندماجه الشديد مع أم أحمد الذي إ تضح بصورة جليّة على ملامحه..
وتُردف أم أحمد:

- دخلت قولتله الشكوي زيّ ما قالتلي الدكتورة بالظبط.. سألني عن سني ووزني.. متجوزة ولّا لأ؟..عندي سكر؟.. بشتكي من الضغط؟.. وكنت بردّ على كل سؤال.. وبعدين سألني: "عندك حرقان في البول؟".. قولتله لا..، "ولا إمساك ولا إسهال؟".. قلتله زيّ الدكتورة ما قالتي تمام؛ إن عندي شويّة صعوبة في البراز.. وسألني آخر سؤال.. "بترضّعي؟"، قولتله لأ.
- والأوضة برضو ما كانش فيها حاجة؟
- مفيش غير شلتتين ومرتبة إسفنج وراديو ترانزيستور..
- مفيش حتى كنبة؟! أمال هو قاعد على إيه؟
- لا مفيش.. هو كان قاعد على كرسي خشب بيتهزّ.

- تمام. طيب كملي.. وبعدين يا أم أحمد؟
- كتب لي شوية كلام على ورقة و ....

هنا تقاطعها ميّادة:

- كتب لك؟! إزاي؟! ده ضرير يا أم أحمد!!.

بينما يتابع دكتور نبوي بشغف ولا يصدق ما يسمع وعينه لا تنحرف عن أم أحمد، تجيب هي:

- آه نسيت أ قولك يا دكتورة.. لمّا دخلت لقيت ولد صغيّر قاعد جنبه.. شكله بيقول إنه في إعدادي.. لمّا خلّص الدكتور أسئلته.. قال للولد اكتب إللّي هملّيهولك وملّاه حرف حرف، حتى الجرعة وإزايّ آخده. تقريبًا الدكتور كمان بيذاكر للولد ده..

يقاطعها دكتور نبوي مُتسائلًا:

- وعرفتي إزايّ؟
- لأن وأنا خارجة سمعته بيقول له يلّا نكمل مذاكرة.

بعد أن أومأ دكتور نبوي برأسه كدلالة على فهمه، سألها:

- وبعدين يا أم أحمد؟
- بعد ما أخدت الورقة سألني "معاكي فلوس؟" قولتله لا. قاللي "هتنزلي للصيدلية إللّي جنب البيت، هتاخدي الدوا ومش هتدفعي حاجة".. وسألته هو أنا عندي إيه.. قاللي "المرارة

تعبانة شويّة وممكن تحتاجي عملية، بس الدوا هيّريّحك، وخلّي بالك من أكلك وابعدي عن الدهون خالص". أخدت الورقة ونزلت ودخلت الصيدلية إديتها للصيدلي بَصّ فيها وإداني علبتين الدوا.. سألته حسابهم كام.. رد عليّا "الحساب وصل"، أخدت الدوا وجيت جري على هنا.

و ما ان انتهت من قص ما حدث فتحت حقيبتها واخرجت منها عبوتين من الدواء ومدت يدها بهما لتعطيهما لميّادة، و التي بدورها تتناولهما منها وتتأملهما قليلًا ثم تضعهما على الطاولة الجالسين حولها وتقول لأم أحمد:

- شكرًا يا جميل.

ثم تصطحبها ميّادة للباب وهي تضع في يدها مبلغًا من المال وتوَدِّعها وتنصرف.

بمجرد أن أوصدت ميادة باب الشقة خلف ضيفتها يلتقط دكتور نبوي العبوّتين ولا يصدق ما سمع وما يراه بين بيده، ويوجِّه حديثه لابنته:

- ده كاتب دوا للمرارة ودوا للشدّ العضلي.. وده تشخيص ممكن دكاترة كتير وبعد تحاليل وأشعّات ويغلطوا فيه.. إزاي يعني؟!

- وأسئلته للست..؟ والدوا فعلًا ببلاش..! ده دكتور فعلًا يا بابا.

- لا يا بنتي دكتور إيه بس!! إنتي مش فاكرة الحادثة المشهورة إللي كانت من كام سنة لمّا قبضوا على واحد مُنتحل صفة دكتور وكان بيعمل عمليات وإتضح في الآخر إنه تمرجي وكان مُنتحل صفة دكتور وكمان جراح.
- فاكرة.. بس ده علشان يكسب فلوس.. لكن ده يا بابا....

يقطع والدها الحوار ويتحدث بلهجة لا تخلو من حدة بالغة:

- ما لاكنش.. ما ينفعش يا ميّادة.. ما ينفعش.. وعلى فكرة إحنا ما إتغديناش لغاية دلوقتي.
- ومين بس له نفس ياكل؟!

يُعقب دكتور نبوي مُبتسمًا مُحاوِلًا تهدئة وحيدته:

- أنا ليّا نفس..

فتتوجه ميادة لإعداد الطعام...

على مائدة الطعام.. يجلسان سويًا ويلتقطان بعض الطعام من حين إلى حين والصمت هو البطل في هذا المشهد، إلى أن يقطعه دكتور نبوي:

- ميّادة إنتي بتسرحي أكتر ما بتاكلي.

- لا أبدًا باكل أهو.
- طيب، بالمرة كان في موضوع حصل إمبارح كنت عاوز أتكلم معاكي فيه والظروف والوقت ما سمحش
- ليه يا بابا؟ كنت قول.
- أقول إيه بس يا بنتي.. إنتي ما شوفتيش منظرك إمبارح كان عامل إزايّ والحكايات بتاعة أسعد والولد بتاع الناي..
- أنا معاك يا بابا.
- إمبارح يا بنتي قبل ما ترجعي بنص ساعة.. عندك فكرة كان مين هنا؟
- لأ.. حد من قرايبنا؟
- لأ.. أسعد.

تُعقِّب ميادة وقد بلغت دهشتها مداها:

- أسعد! أسعد مين؟.. ما يكونش دكتور أسعد؟!
- هو يا بنتي.. وطلبك للجواز.
- بتقول إيه؟!.. ويعني إيه يجي من غير ما يقول ولا ياخد ميعاد؟ وبعدين أنا قدامه كل يوم ما قاليش ليه؟!
- الراجل اتصل بيّا الضهرية واستأذنِّي إنه يقابلني وحاولت أكلمك تليفونك كان غير مُتاح زيّ ما قلتلك.
- وجاب تليفونك منين وهو ما يعرفش إني بنتك أصلًا؟!

- لمّا كان هنا وفي نُص كلامنا قاللي إنه من أول تعيينك في المستشفى وهو كان عارف إني أبوكي، وإنه احترم فيكي إنك مش قايلة لحد إن أبوكي أشهر دكتور في مصر.
- وحضرتك ردِّيت عليه؟.. أقصد يعني في موضوع طلبه للجواز.
- طبعًا لا.. سمعت منه.. وقلتله هشوف معاكي وأرد عليه.. بيقول إنه معجب بيكي ومستعد للخطوبة والجواز بمجرد موافقتك.
- و ما قالّيش ليه الأول؟!
- سألته نفس السؤال.. "قاللي إنه صعيدي وطلب الجواز بيكون في البيوت مش براها".. وبصراحة أنا احترمت ده فيه.
- أنا محتاجة أنام أوي.. بعد إذنك.. تصبح على خير.
- وأسعد؟
- بعدين يا بابا.. بعدين.. بعد إذنك.

وتتركه وتهرع للفراش...

لم تغفل عيني دكتور النبوي شاردًا في أسعد من ناحية، وفي ابنته من ناحية أخرى، وقصة عازف الناي التي تسيطر على تفكيره بشكل مبالغ فيه.. والتي لا يجد لها تفسيراَ منطقياَ يُشفي غليله.

كذلك ميادة.. كان تراكم الأحداث عليها عنيفًا.. ممّا جعلها مستيقظة طيلة الليل، تارة تفكر بطلب أسعد الغريب والغير متوقع بالزواج منها، وتارة تفكر بعازف الناي.

والمشهد ذاته في منزل أسعد، والذي ينتظر صباح اليوم التالي متوتراَ، ويحاول تصوّر كيف سيقابل ميادة صباحًا، ومتسائلًا هل ستوافق على طلبه لتكون رفيقة حياته؟

و لم يختلف حال آدم كثيراَ عمّا كان عليه الثلاثة الآخرين من القلق والشرود، وإحساسه القوي -الذي كاد أن يكون يقينًا- بأن شيئًا ما يحدث في الأُفق.. أو سيحدث، لا يعرف ما هو.. أو ما كنهه ولكنه يعلم بأنه أمر ربما سيَغيّر الكثير.

اليوم التالي.. صباحًا

وسط تل من الملفات المُختلفة الألوان والأحجام بالكاد يظهر رأس إيناس من خلاله -سكرتيرة أسعد- من خلف مكتبها الخشبي المتوسط الحجم والمُتهالك نسبياَ، وتلمح ميادة وهي تدخل الغرفة فتبادرها مُرحِّبة:

- أهلًا يا دكتورة.

- صباح الخير يا جميل.. يا ترى دكتور أسعد موجود؟
- آها.. جوه.
- أقدر أدخلّ له؟
- آه طبعًا.. هو لوحده بس ثواني أدِّيله خبر.

ترفع سماعة الهاتف محاولة الاتصال به ثم تضعها مرة واحدة وهي تصيح:

- السلك المهبَب بتاع التليفون إللي عمّال يتهزّ يمين وشمال مش عاوز يتعدل أبدُا.. ثواني يا دكتورة.

تنهض من مقعدها متوجِّهة نحو غرفة أسعد.. وما هي إلا ثوان معدودة وتعود مُخبرة ميادة بأنه بانتظارها.

تتجه ميادة نحو مكتبه ببطء، إلى أن تدخل وتجده يعبث ببعض الأوراق وقد ظهرت عليه بعض علامات التوتر، وبصوت منخفض

توجّه حديثها له:

- صباح الخير يا دكتور.

- صباح الخير يا ميادة.. واقفة عندك ليه؟! تعالي اقعدي.

تجلس ميادة في هدوء والصمت يُخيم على المكان للحظات قليلة، ثم تبدأ بالتحدث بدون النظر في وجه أسعد:

- آسفة لو هعطلك عن حاجة في إيدك.

- لا أبدًا.. أنا تقريبًا كنت مستنيكي.

وكأنه فتح لها بوابة الحوار الذي كانت في حيرة أن تبدأه، فتقول:

- بابا قاللي إنك كنت عندنا أول إمبارح.

- صحيح.

- كنت متخيلة يا دكتور إنك كنت هتقوللي الأول قبل ما تتكلم مع بابا.. على الأقل علشان المفاجأة.

- ويا ترى مفاجأة كويسة ولّا...؟

- بغض النظر عن إنها كويسة أو لأ، بس أنا من الناس إللي مش بتعرف تتعامل مع المفاجآت.. حتى لو كانت حلوة، وخصوصًا لو كانت من النوع إللي كنت عندنا في البيت علشانه.

- إيه رأيك لو تُدخلي في الموضوع علطول؟

- دكتور أسعد.. حضرتك دكتور محترم وسمعتك سابقاك، وأنا شخصيًا بتوقّع لك مستقبل كبير. وكمان متأكدة إن بنات كتير كويسين يتمنوا الإرتباط بيك.

وتصوِّب نظرها إليه تدريجيًا وتكمل:

- المشكلة فيّا أنا، أنا مش مستعدة لأي نوع من الارتباط في الوقت الحالي، ولسه قدامي كتير أوي علشان أبتدي أفكر في موضوع كبير زيّ الجواز، وكمان لو فكرت مش هيكون بالطريقة التقليدية دي.

يعتدل أسعد في مقعده عاقدًا حاجبيه، ناقرًا بقلمه على مكتبه نقرات خفيفة متتالية، ولا يزال يستمع.. وهي تكمل:

- وما أقصدش خالص إنه غلط إن حد يُعجب بحد ويروح يطلبه للجواز. ويمكن كمان يكون ده الصح، وعارفة إن أغلب الجوازات كده وكتير منها بينجح.. مش هنكر، بس بالنسبالي الطريقة دي مُستبعَدة. وسواء تفكيري في الجزئية دي صح أو غلط.. بس أنا كده.

- أكيد من حقك إنك تفكري بطريقتك، زيّي تمام لمّا رُحت لغاية بيتك كنت بفكر بطريقتي. عمومًا أنا بحترم صراحتك ورأيك، والحاجات دي تحديدًا نصيب بالدرجة الأولى.

تنهض ميادة مُتَّجهة للخروج ولم يستوقفها غير صوت أسعد:
- ميادة..
تستدير نحوه مُجددًا منتظرة أن يُكمل:

- مش عاوز الموضوع ده يكون سبب في خلاف بيني وبينك، أو

يسبَب أي حساسية في التعامل بينًا.

- مش عاوز الموضوع ده يكون سبب في خلاف بيني وبينك، أو يسبب أي حساسية في التعامل بينا.

- أكيد لأ، وحابة أقولك كمان إن الموضوع ده هيفضل سر بينًا و محدّش هيعرف عنه حاجة. بالمناسبة.. أنا ماليش أخت اسمها ميار، أنا بس قلت كده علشان.....

يقاطعها أسعد سريعًا:

- عارف ومش محتاجة تبرّري.

- بعد إذنك يا دكتور.

ثم تستدير مُسرعة.. مغادرة غرفة مكتبه.

خارج المستشفى.. حيث المارة والهواء والفضاء الفسيح.. يقترب عم نبيل من آدم هامسًا في أذنه:

- مالك يا دكتور؟ بقالي ساعة أو أكتر ملاحظ إن إيدك مش موزونة على الناي.. إنت تعبان؟

بعد أن أبعد نايه قليلًا عن فمه يجيبه:

- أنا كويس يا عمِّنا.

بالطبع لم يكن آدم يستطيع أن يُخبره بما يدور في خاطره، وشعوره بتوتر ميادة من صوت خطواتها. والسؤال الذي لا يغيب عنه:

"يا ترى مالك.. فيكي إيه بس؟ ما أهو مش معقول ودني غلطت، وحتى لو وداني غلطانة.. إحساسي كمان غلط؟! يا رب خير.."
ولم يكن يدري بأنه يُحدِّث نفسه بصوت خافت إلا عندما يهمس عم نبيل في أذنه مُجدداً:
- بتقول حاجة يا دكتور؟!
- لا يا عم نبيل.. أنا سرحت شوية بس. إرجع إنت لأكل عيشك وأنا هكمِّل عزف.
يتَّجه عم نبيل عائدًا لمكانه وهو يتمتم:
- ربنا يريّح بالك يا راجل يا طيب ويطمِّنا عليك.. قادر يا كريم، ده إنت الخير والبركة يا دكتور. والنبي يا رب استرها بحق جاه النبي.. يا رب إحنا من غير الدكتور ولا حاجة.. يا رب سَلِّم.

أثناء ختامه لصلاة الظهر.. يرن هاتف دكتور نبوي. يختم الصلاة ويمد يده في جيبه مُتناوِلًا هاتفه.. كانت ميادة على الطرف الآخر ويسألها:
- حبيبتي إزيّك؟
- الحمد لله.. مال صوتك يا بابا.. تعبان ولّا إيه؟
- ضهري تعبني شوية زيّادة النهاردة. يمكن أكون عملت حركة غلط وأنا مش واخد بالي.
- أخدت مُسكِّن؟

- الصيدلي كان لسه عندي من ربع ساعة، إدَّاني حقنة فولتارين بس لسه ما اشتغلتش. سيبك مني.. أخبارك إيه؟.. لا جديد في أي حاجة؟

- أبدًا.. بس كنت بستأذنك إني هرجع متأخرة شوية النهاردة.

- خير يا ميادة؟

- في مشوار مهم لازم أعمله بعد الشغل.

- إوعي يكون إللي في بالي.. الولد بتاع الناي؟!

- طول عمرك أكتر واحد فاهمني حتى من غير ما أتكلم. هروح له بيته أتكلم معاه. الموضوع ده يا بابا لازم أعرف أوِّله من آخره. أنا لا عارفة أنام ولا آكل ولا أشتغل. إيه رأيك؟

- بيته يا ميادة..! إزاي بس؟! وفي الحارة المقطوعة إللي وصفيتهالي قبل كده.

- الدنيا هناك أمان يا دكتور، أمان أكتر من الزمالك يا حضرة بابا الدكتور.. وعمومًا أنا مش هتأخر.

بعد لحظة صمت قصيرة.. يرد دكتور نبوي:

- روحي يا بنتي وخلِّي بالك من نفسك.. ولو في حاجة كلميني.

- ما تخافش على بنتك يا دكتور.. بنتك أسد صغنون زيّ ما إنت عارف.

وضع دكنور نبوي هاتفه جانبًا بعد أن أنهى المكالمة. ثم شرد بفكره وجال بعقله بأن يقينه قد صدق بأنها ستذهب إليه، ودعا ربه سرًا بألا يتحقق يقينه الآخر..

تتوجه ميادة مباشرة إلى أحد الكافيهات الراقية القريبة من الزمالك والتي أيضًا ليست بالبعيدة عن منزل آدم، لتقضي بها بعض الوقت حتى موعد عودته. الموسيقى كانت تدبّ في كل زواية من زوايا المكان الذي يعجّ بالشباب من الجنسين. تتأمل ميادة الجالسين من حولها.. فمن بينهم مجموعة من الشباب الذين علا صوتهم بالحديث عن مباراة منتخب مصر بالأمس، ولا تكاد تُميّز ملامحهم من دخان النارجيلة الذي ينفثونه. في زاوية أخرى يجلس شاب وفتاة يبدو عليهما أنهما يعيشان قصة حب دافئة تنبعث تفاصيلها من نظرات أعينهما، بينما تتطلع ميادة بأعينها في الجالسين بين فرادى أو مجموعات يتبادلون أطراف الحديث وصوت الموسيقى يعمّ المكان، تطوف بخيالها بين ماضٍ بعيد وحاضر قريب وكيف كانت تجلس في مكان مُشابِه لذلك الكافيه منذ عدة سنوات برفقة حبيب عمر ها "جاسر"، الذي كان يعمل مُدرسًا بكلية الطب عندما كانت هي في السنة الخامسة. تذكَّرت كيف كانت أخلاقه وأحلامه، لم يكن من نفس طبقتها الإجتماعية ولا حتى يقترب لكنه كان بالنسبة إليها كان الحلم والأمل. تذكرت آخر لقاء جمعهما.. وكيف كانا يرسمان ملامح المستقبل ويخُطّان بلمسات أيديهما الخطوط ا لعريضة للحياة التي ستجمعهما معًا.

دمعت عيناها وهي تتذكر اليوم التالي للقائهما الأخير.. وكعادتها عند ذهابها للكلية وتوجّهها مباشرة لغرفة مكتبه لإلقاء التحية.. تجد مقعده خاليَا والسكون يُخيّم على المكان والحزن يكسو وجوه زملائه. كان القدر قد اختطف جاسر للأبد في غفوة من الزمن.. من

فجر ذلك اليوم.

يقطع كل تلك الذكريات وتفاصيلها الدقيقة شخص يوجه لها حديثًا - كان نادل الكافيه- بعد أن رآها تُجهِش بالبكاء:

- آنسة.. يا آنسة.. في حاجة؟

- لا..لا أبدًا.

- تعبانة.. أو حد ضايقك؟

- لأ خالص.. إفتكرت حاجة بس.. هي الساعة كام؟

- ستة ونص.

- يااه.. الوقت فات بسرعة.. الحساب لو سمحت.

- ثواني.

إلى أن عاد النادل بفاتورة الحساب.. فطنت ميادة أنها أبحرت في ذكرياتها ليس مع موسيقى المكان.. ولكن مع صوت أنين ناي آدم و الذي لا ينقطع طنينه عن أذنها.. بل عن وجدانها.

بخطوات متوترة يجول دكتور نبوي في بهو منزله الفسيح ذهابًا وإيابًا قلقًا على ابنته، ومُنتظرًا نتائج اللقاء الذي توقعه.

خطواته كانت بطيئة مُهتزَّة مُتعرَجة نتيجة لآلام العمود الفقري المتزايدة اليوم بعد الآخر. على العكس تماماً كانت سرعة نبضات قلبه و تسارع دوران الأفكار في عقله. كان يعلم بأنه لن يهدأ له بال إلا إذا عادت ميادة حاملة معها أخبار تنافي توقعاته.

لم يكن يجد تفسيرَا منطقيَا للموافقة على ما تفعله غير إهتمامه هو شخصيَا بفكّ غموض ذلك الشاب، رغم تظاهره أمامها بعدم اكتراثه بالأمر.. على عكس ما يدور بداخله. بل إنه تيقَّن بأن اهتمامه بذلك الشاب قد غلب اهتمام ميادة به...

بعد عودة آدم لمنزله.. كان يومه هادئًا من الزوار ولكن لم يكن عقله بنفس ذات الهدوء. تقترب ميادة ببطء من باب مسكنه الخشبي، وقبل أن تطرَقه.. تسمع صوته من الداخل يقول:

- إتفضلي يا دكتورة.

لم تتفاجأ ميادة حيث أدركت أن آدم عرف بقدومها من خطواتها، وتقدمت ببطء يشوبه توتر شديد، زاد منه أزير الباب الخشبي وهو يُفتَح، وإذا بها تسمع مُجَدداً:

- في الأوضة إللي قُدامك يا دكتورة.

تتقدم ميادة بنفس درجة البطء مع إزدياد حدَّة التوتر وتَسارُع ضربات القلب، إلى أن تدخل الحجرة فتجده جالسًا على كرسيه الهزاز مُتأرجحًا تأرجُحًا طفيفًا.. وبالكاد تستطيع أن تتحدث:

- مساء الخير.

- أهلًا وسهلًا.. مساء الخير..

يصمت قليلًا ويُردِف:

- معلش مش قادر أقولك اتفضلي اقعدي لأن زيّ ما إنتي شايفة مفيش غير شلتتين.

- عادي ولا يهمك.. ما عنديش مشكلة إني أقف وخصوصًا إني مش هاخد من وقتك كتير.

لم تنتبه ميادة إطلاقًا لأيّ من تفاصيل المكان، كان كل تركيزها على وجه آدم وملامحه، وتعجّبها من عدم وجود أي إنفعال على وجهه تستطيع من خلاله إستشراف ما يدور بعقله.

آدم .. هو ذلك الشخص الذي طالما علَّمته الحياة أن يسيطر على ملامح وجهه ويبدو دائمًا كالوجه الحديدي، لم يكن كذلك بداخله بل كان على العكس تمامًا.. تجول داخله المشاعر سابحة في بحور خلجاته. كذلك عقله لا يكف عن التفكير أو التحليل حتى لأدق الأمور. كان ينتظر ميادة أن تبدأ بالحديث، وبعدما طال إنتظاره لم يجد بُدًّا من أن يبدأ هو ويقول:

- ساكتة ليه يا دكتورة؟

- أبدًا.. بس.. بس يعني مش عارفة أقول إيه.

- قولي إللي إنتي جاية تقوليه.

- بصراحة الفضول إللي جابني هنا. مش الفضول بمعنى الفضول، أقصد يعني حاجة جوايا جابتني.. حاجة خلّتني أبقى موجودة هنا دلوقتي.

- وإيه هي الحاجة دي؟!

بالطبع كان يعلم بأن ميادة أتت إليه لتعرف مَن هو. ومَن يكون ذلك الشخص المجهول.. الكفيف.. عازف الناي المبَدع.. كان على يقين بأنها لم تستطع مقاومة ذلك الفضول لرؤيته كيف يعيش، وكيف يستقر به الحال. لكن الأهم أنه كان مُتيقنًا من أن فضولها

الأكبر هو كان لمعرفة ما يحدث بداخلها هي.

دام الصمت برهة إلى أن طرق الباب ذلك الصبي الصغير -علي- وولج كعادته دون إستئذان.. فبادره آدم قائلًا:

- كويس إنك جيت يا علي.

- جيت أطَّمن عليك وأشوفك لو عاوز حاجة، وبالمرة لو عندك وقت تذاكرلي شويّة.

- أنا كويس يا علي. بس خلينا نكمل مذاكرة بكرة علشان عندي ضيوف.

- طيب.. تصبح على خير يا دكتور، ولو احتجت حاجة نادي عليّا.

وقبل أن يستدير علي ليخرج من الحجرة ينادي عليه آدم:

- إستنى يا علي.

- نعم.

فيسأل آدم ميادة:

- تشربي شاي يا دكتورة؟.. معلش ما عنديش غير شاي.

- لا.. مالوش لزوم.

- مش عزومة مراكبيّة على فكرة.

- عارفة.. لو عاوزة هقولك.

- لو علي مشي، مش هعرف أعملّك حاجة تشربيها.

- لا ما تشغلش بالك، أنا تمام.

يأذن آدم لعلي بالإنصراف.. وما أن يخرج تسأله ميادة:

- ما بتعزفش ناي هنا؟

- لأ.. خالص.

- ليه؟

- أولًا الوقت متأخر وده مكان ناس ساكنة فيه وما يصحَش أزعجهم. وثانيَا كفاية عشر ساعات أو أكتر عزف في اليوم.. أرتاح شويّة.

- عندك حق.

تكمل وكأنها انتوت أن تصل لما جاءت إليه:

- بصراحة أنا مستغربة إنك مش مستغرب إني هنا، وإني إزاي عرفت مكانك.

- مش مستغرب لإني كنت عارف إنك هتيجي.

تبدو علامات الإندهاش على وجه ميادة، بينما يكمل هو:

- ما أقصدش إني كنت عارف إنك هتيجي النهاردة تحديدًا، إنما كنت عارف إنك هتيجي في يوم من الأيام. ومش مستحيل ولا حتى صعب إن حد يعرف مكان حد. ممكن مثلًا يبعت حد يمشي وراه أو هو نفسه يمشي وراه لحد ما يعرف ساكن فين، خصوصًا لو كان عاوز يعرف.. أو.. أو محتاج يعرف.

تحاول إستعادة إتزانها بعد رد آدم وتردف:

- إن حد يعرف حد ساكن فين.. دي عندك حق فيها، إنما إزاي كنت عارف إني جاية؟

- إحساسي.. إ للي عمره ما كدب عليّا حتى لو كل الدنيا كدّبته.. حتى لو كل البشر إللي ربنا خالقهم كلهم وقفوا قدامه وما صدقوهوش.

- إحساس ولا تَوَقع؟!

- إحساس.. لأن إللي زيّي مش ممكن يتوقع إن حد زيّك ييجي بنفسه لحد زيّي في مكان زيّ ده.

تتنهد ميادة.. ويُخيَم الصمت من جديد، إلى أن تتمالك نفسها مجددًا وتسأله:

- هو إنت إيه حكايتك؟!

- ماليش حكاية.. وإذا كانت ليّ ا حكاية فهيّ أقصر من إنها تتحكي. بمعنى أدق زيّ ما إنتي شايفة.. الصبح قُدام المسشتفى، وبعدها هنا وشوية وهنام.. وخلاص، وتقريباَ خلصت الحكاية.

- أقصد يعني.. شاب زيّك واضح من طريقة كلامك إنك مثقف ويمكن تكون مُتعلِّم.. عايش ليه كده؟! و ف حارة زيّ دي؟! وبيت خشب فوق سطح بيت تقريباَ بيقع!! وآسفة يعني في إللي هقوله؛ بس إيه إللي يخليك تقعد قُدام مستشفى تستنَّى فلوس من إللي رايح وإللي الجاي؟ حد في شطارتك في العزف وحتى برغم إنك كفيف كنت ممكن تعزف في فرقة موسيقى كبيرة أو حتى في الأوبرا، وكان زمانك بقيت أشهر عازف في مصر، وأكيد وقتها كنت هتبقى عايش في أرقى مكان في القاهرة وعندك خدَّامين وسوّاق وعايش عيشة تانية خالص.

ثم تُكمل بعد صمت قليل في محاولة منها لجمع كل ما تملك من الجرأة وتُكمل:

- بصراحة أنا بعتِّلك حد هنا وعرفت إنك بتسيب فلوس في الصيدلية علشان الغلابة ياخدوا دوا ببلاش، وكمان بتقولهم على الدوا. إزاي بتعرف تشخَّص المرض؟ وإيه حكاية الدكتور دي

كمان؟!... هو إنت ملكش اسم؟! وحتى لو عاوز تعمل خير، مفيش مشكلة.. بس ممكن تاخد جزء من إللي بتلمّه طول اليوم وتعيش عيشة أحسن من كده و....

يقاطعها آدم وقد اعتلت وجهه إبتسامة بيضاء كبسمة الأطفال:

- كل دي أسئلة يا دكتورة..؟! هجاوب عليها امتى؟ ده أنا كده عاوز ٣ أيام علشان أجاوب...

ويُردف مُتهكمًا:

- وبعدين إنتي ليه محسِساني إني مع وكيل نيابة؟!

تضحك ميادة قائلة:

- ما أقصدش والله.. بس مستغربة، الحكاية إللي قلت عليها من شوية إنها أقصر من إنها تتحكي.. مليانة تفاصيل أنا مش قادرة أستوعبها، وعارفه إنها أسئلة كتير وفعلًا عاوزة وقت طويل علشان تجاوب.. بس أنا عاوزة أعرف.

- المفاجأة إنها مش هتاخد وقت طويل ولا حاجة، تلتين أسئلتك إجابتها جملة واحدة.. "إني فهمت الدنيا".

- يعني إيه؟

يُجيب و هو يضع معصميه على ساعدي الكرسي الهزّاز رابتًا عليهما بكلتا سبابتيه:

- الدنيا إيه غير إني أعمل حاجة بحبها ومش مُجبر عليها ومُقتنِع بيها؟ وزيّ ما إنتي عارفة.. بعزف ناي. الدنيا إيه غير لقمة تنزل في معدتك تسدّ جوعك وشويّة ميّة تروي عطشك؟ إللي بياكل خروف زيّ إللي بياكل فول، ده شبع وده شبع. إللي شرب كوباية

ميّا زيّ إللي شرب شوب مانجا كبير. الدنيا إيه غير آخر النهار تلاقي بيت يسترك وفرشة تنامي عليها آخر الليل؟ الدنيا إيه غير إنك تعملي شوية خير تقابلي بيهم رب هتقفي قدامه مهما كان عمرك أو وضعك في الدنيا؟ ببساطة أنا اخترت إني ما أمسكش في إيد الدنيا وأسيبها تجري بيّا. تبقى عندي عربية ويبقى نفسي يبقى عندي عربية أكبر أو عربيتين، أو أسكن في شقة وبعدها أتمنى فيلّا أو شاليه في الساحل، وخطوة تاخدني لخطوة وخطوتين ويمكن عشر خطوات، ومن كتر ما الدنيا ساحباني وراها وبجري مش هتبسط بأي حاجة معايا لإني دايمًا هبقى عاوز أكتر. ولو جرّبت حاجة أكيد هبقى عاوز أجرب حاجة وراها.. وهكذا.

- عاوز تفهمني إنك ملاك؟

- لأ خالص بالعكس.. أنا إنسان جدًا وبكل تفاصيله وحذافيره. الفكرة بس إني فهمت آخرتها إيه. ما حبيتش أجري أو يمكن كسّلت أجري. بس النتيجة واحدة.. إني ما جريتش. وشويّة بشويّة إتعوّدت على كده وعلشان كده.. بقيت كده.

لم تكن ميادة بالشخص السهل إقناعه، وبالرغم من إدراكها حرفيًا لصحة كلام آدم نظريًا إلا أنها لم تتوقع مطلقًا أنها أمام مَن استطاع تطبيقه عمليًا.. وأنه لا يتظاهر بل يُطبِق بما يقوله حرفيًا ممّا أقنعها بشكل كامل بكل حرف نطق به.

تُدرك أنها لا تزال واقفة بعد شعورها بوخزات ألم بكعبيها، فمالت بجذعها قليلًا لتلتقط أحد الشلت وتضعها بالقرب منه وتجلس عليها.

تلفت حركتها إنتباه أذن آدم، فيسألها:
- إنتي لسه هتقعدي يا دكتورة؟! كده هتتأخري.
- بتطردني ولّا إيه؟ يا سيدي إعتبرني عيّانة وجايالك في إستشارة، وبعدين لسه الساعة تمانية.. شويّة صُغيريين وهمشي ما تقلقش.
- البيت بيتك.. أنا بس خايف عليكي لتتأخري، وكمان إحنا في حارة صغيّرة وأكيد إنتي فاهمة الناس هنا بتفكر إزاي.
- فاهمة طبعًا.. ومش هطوِّل عليك بس كمِّل كلامك.
- أنا خلَّصت كلام. ما أفتكرش إن عندي حاجة تانية ممكن أقولها.
- لأ.. لسه.. هو إنت قلت حاجة أصلًا!! إيه حكاية دكتور دي؟
مُبتسمًا، يرد آدم:
- تعرفي مثل "اسأل مجرب ولا تسأل طبيب"؟
- أيوة عارفاه.. ماله؟
- أنا لفِّيت مع أبويا وأمي وأخويا الصغير قبل ما يتوفوا على دكاترة كتير. كانوا دايمًا عيانين ومشاكلهم الصحية مش بتخلص، ومن كتر ما سمعت من الدكاترة وداني كانت بتلقط الدوا وكنت بربطه مع التشخيص وأعراض المرض. ده غير لما حد من قرايبنا أو جيراننا في بيتنا القديم كان يمرض ويروح لدكتور ويرجع يحكي، برضو كنت بلقط لحد ما اتجمعت عندي شوية معلومات أقدر أساعد بيها الناس.
- دكتور من منازلهم يعني؟
- حاجة زيّ كده. وطلعت عليّا في الحارة كلمة دكتور. ومرة واحد من إللي بيجولي هنا شافني قاعد قدام المستشفى الصبح ونادى

عليا "يا دكتور"، عم نبيل بتاع الشاي سمعه وهو كمان بقى يقوللي يا دكتور. ومن يومها كل إللي في المستشفى ما يعروفوش ليّا اسم غير الدكتور.

تقول وهي تفرك إحدى حاجبيها بأناملها:

- صحيح في ناس كتير عندها موهبة التشخيص، بس مهما كان مش هيعرفوا كل الأمراض. ده حتى الدكاترة نفسهم إللي درسوا علم الطب قضوا سنين طويلة في كلية الطب ما يقدروش يشخَّصوا كل الأمراض ولا حتى رُبعها.

- ومين قالك إني بشخَّص وبعرف كل الأمراض؟ ساعات كتير بقول لناس بتجيلي لازم تروح لدكتور و...

تقاطعه ميادة:

- وبتدفعله فلوس الكشف، ويرجعلك بالروشتة ويصرفها من الصيدلية إللي تحت؟

لم يُجِب آدم ويكمل:

- يا دكتورة.. معظم أمراض الغلابة بسيطة لأن ربنا عالم بحالهم، وأغلبها أمراض ناتجة عن الفقر والهمّ والضغط إللي عايشيين فيه ليل ونهار، أو بسبب إن الغلبان دايماً بيبجي على صحته في سبيل إنه يعيش.. الغلبان يا دكتورة دايماً بتكون صحته آخر إعتباراته..

- ما جاوبتش على سؤالي.. بتدفعلهم تمن الكشف؟

- إنتي كده بجد اتأخرتي.. إيه رأيك نكمل كلامنا يوم تاني؟

- بتطردني يعني؟ ماشي موافقة . معلش عملتلك دَوشة.

- لأ، دوشة إيه بس.

تنهض ميادة وتتجه للخروج بعد أن ألقت التحية على آدم، ثم تستدير فجأة وكأنها غفلت عن أهم ما أتت من أجله وتسأله:

- ما عرفتش اسمك إيه؟

- آدم.. اسمي آدم.

تصمت لثانية وتسأل مترددة:

- مش عاوز تعرف اسمي؟

- مش النهاردة يا دكتورة. خلّي بالك من طريقك وإنتي ماشية، وعلى فكرة عتبة البيت فيها حتّة في النص مكسورة، خلي بالك لا تتكعبلي فيها.

- آخر سؤال معلش..

- إتفضلي.

- إزاي بتعرفني من خطوة رجلي؟

- أنا مش بعرفك.. أنا بحِسك من خطوة رجلك. اللُقا في الدنيا مكتوب يا دكتورة، وساعات كتير بتكون أسبابه مش منطقية، ولا حتى طبيعية.

- يعني لو في يوم ما كُنتش لابسة شوز بكعب هتعرفني؟

- طبعًا هعرفك.

- إزاي بس؟!

- واضح إنك ما سمعتيش أنا قلتلك إيه من شوية.. أنا بحسَك يا دكتورة.

- إشمعنى أنا؟

- ده سؤال من نوعية الأسئلة إللي المفروض ما تتسئلش ولو

اتسألت للأسف مش هيكون لها إجابة واضحة.

- إنت مين بس؟! إنت إيه يا أخي؟!

- وبعدين معاكي؟ يلّا توكلي على الله. وطالما إن اللُقا مكتوب، يبقى هنتقابل تاني.

تنصرف ميادة ويشعر آدم بسعادة لم يحياها منذ سبع سنوات أو أكثر، شعر وكأنه وُلِد من جديد.. وكأنما دبّت الروح فيه بداية من هذه اللحظة. بدا له وكأنه في حلم لا يريد الإستيقاظ منه.

بمجرد وصول ميادة لبيتها تجد والدها قد وضع كرسيه بالقرب من مدخل الشقة وقد بدا عليه التوتر الشديد والإرهاق من طول الإنتظار ويبادرها متسائلًا بلهجة تحمل حدة وثورة:

- إيه يا ميادة.. كل ده تأخير؟!!

- آسفة والله يا بابا.. الوقت سرقني وكمان جيت مشي..

- المهم احكيلي إيه حصل؟ وإنتي كويسة ولا إيه؟..

ترد وهي تبتسم:

- دايمًا يا بابتي يا جميل بتسألني ميت سؤال ومش ببقى عارفة أجاوب على أنهو سؤال الأول..

- إضحكي عليا وخُديني على أد عقلي بهزارك.. جاوبي عليهم كلهم..

- كويسة وزيّ الفل أهو قدامك..

وتكمل مازحة في محاولة منها لكسر غضب وتوتر والدها:

- ولا ناقص فيا دراع ولا رجل ولا بعرَج.
ويتابع دكتورنبوي بحدة ليست من طبعه:
- ها.. إيه حصل؟
- طيب هاخد شاور سريع وأعمل لنا ساندوتشين بسرعة وأجيلك.. مش هغيب أكتر من عشر دقايق.. ومش هنسى فنجانين الشاي الإنجليزي علشان الكلام يبقى بمزاج.
- آه منك يا لمضة..
بعد أن انتهت ميادة من حمامها الدافئ تجلس مع والدها وتقُصّ عليه ما حدث جملة وتفصيلًا وهو يسألها عن تفاصيل التفاصيل.. أخذت تصف له كل شئ حتى طريقة آدم في التحدث وكيف كان إعجابها بسكتاته أحيانًا بين الكلمات وبعضها وسرعته أحيانًا أخرى.. أبدعت في وصف الجمال الذي يتمتع به المكان رغم بساطته.. وكيف أنها لم تشعر للحظة واحدة بأنها غريبة أو انتابها أيّ شعور بالخطر.
كل هذا ووالدها يستمع بإصغاء ولا يقاطعها.. كان يفكر في كل كلمة تحكيها ميادة ويُحلِّلها.. ظلَّ الوضع هكذا لأكثر من ساعة تقريبَا.. حتى توقفت ميادة عن الحكي بعد ملاحظتها عدم تناوله الشاي وسألته:
- ما شربتش الشاي ليه؟
- كنت بسمعك..
- حضرتك طول عمرك بتشرب الشاي وإنت بتسمعني، أعمل لك واحد تاني؟

- مالوش داعي.. فاكرة الست إللي بعتِّيها للولد ده وهي بتحكي عن إللي حصل معاه؟

- طبعًا فاكرة.. أم أحمد..مالها؟

- كانت جابت سيرة لوحة متعلقة...

ميادة: آه فعلًا.

- أخدتي بالك منها؟ مرسوم فيها إيه؟

- بصراحة ما ركزتش.. وكمان يا بابا ده بيت فقير أكتر ممّا تتخيل وحتى لو في لوحة أو تابلوه هيكون حاجة متواضعة، ما تتناسبش مع حد زيّ حضرتك، هوايته من زمان جمع لوحات لأشهر الفنانين العالميين من أكبر المزادات في العالم كله.

- مش دي المشكلة

- أومال إيه المشكلة؟

- مفيش مفيش.. المهم، بعد كل إللي حكيتيه.. إيه رأيك؟

- مش عارفة.. صحيح أنا ما عرفتش تفاصيل كتيرة كان المفروض أعرفها، يمكن الوقت ما سمحش من ناحية.. ده غير إنه بطريقة أو بأخرى مش بيجاوب على كل حاجة بسهولة.. مش عارفة يا بابا تحسّه بيجاوب ومش بيجاوب.. حسيت وأنا معاه إنه بيتعمد يقف في منطقة وسط بين الإجابة وعدمها.. يعني كنت عاوزة أعرف هو دارس إيه وكان بيشتغل إيه قبل موضوع الناي ده واتولد كفيف ولا اتعمى امتى بالظبط.. بس عمومًا يا بابا آدم قال كل إللي جوايا.. قدر ينفِّذ كل حاجة كنت بحلم إني أعملها وما قدرتش.. كنت حاسة كإني بسمعني.. صدقته.. فرحت بكلامه.. صحيح ممكن

يكون كل إللي بيعمله نتيجة لحاجة حصلتله غيّرت مجرى حياته كله.. بس حتى لو كده يبقى من حب ربنا له.. وكتير بتحصلّهم حاجات سيئة ويبقوا ناويين يزهدوا في الدنيا بس بعدها بشوية صغيريين أو كتار بيرجعوا زيّ ما كانوا، وأحيانًا أسوأ..

ثم تصمت قليلًا وكأن شيء ما خطر ببالها وتكمل:

- بابا.. إللي زيّ آدم لازم يرجع يشوف.. حد زيّه مش لازم يكون أعمى.. مع إني حاسة....

(قالتها ثم تصمت مجددًا وتسرح بخيالها)

فيسألها:

- حاسه إيه؟

- لا.. لا ولا حاجة.. حضرتك أكبر دكتور عيون في مصر.. إيه رأيك لو تكشف عليه؟

- مفيش مشكلة..

- بجد؟!

- آه بجد، وبجد جدًا كمان.. ليه لأ؟.. بس أفهم من كده إنك ناوية تشوفيه تاني؟

- ده بعد إذنك طبعًا..

بعد الحديث الطويل بين الأب وابنته تذهب هي لتنال قسط من الراحة وتتركه غارقاً في خضمّ بحر هائج من الأفكار تمامًا كتابلوه البحر الهائج الذي يُزيّن بهو الشقة الرئيسي ولم يستطع أن يخدع نفسه في أنه قد انبهر بما سمع، بل إنه في بعض الأحيان تمالك نفسه

بصعوبه بالغة ألا تدمع عيناه وهو يستمع لابنته.. أيقن دكتورنبوي بأ ن عازف الناي ما زال يحمل بين طيّاته الكثير وبأن ابنته لم تعرف إلا قشوراً.. قرّر الخلود للنوم للهروب من التفكير وارتكز على جانبي مقعده لكي يساعداه على النهوض بعدما اشتد عليه ألم أسفل الظهر وهو يتمتم بصوت مسموع:

- كنت متأكد.. والله كنت عارف.

قالها بعد أن استقر يقينه بأن توقعه الذي كان يخشاه قد تحقق وهو أن حب عازف الناي قد اخترق قلب ميادة....

بعد انقضاء اسبوع

لم يحدث خلاله الكثير من الأحداث.. فالأيام تمضي بشكل مُعتاد.. حتى ذلك اليوم والذي تقرر فيه ميادة الذهاب مُجدداً لآدم بعدما استأذنت والدها بعدما وعدته بأنها ستكون الأخيرة..

في ذلك اليوم كان بيت آدم يكتظّ بالزائرين واضطرت للإنتظار طويلًا حتى تمكَّنت من الدخول له وبعد إعتذارها له بسبب تأخُّر الوقت ووعدها له بأنها لن تمكث إلا دقائق معدودة تقديراً منها للوضع الذي سبق أن وضَّحه لها.. تقول:

- آدم.. وإسمحلي أقولك آدم من غير ألقاب.
- مش محتاجة إستئذان.. وأنا أصلاً مش بحبذ موضوع الألقاب ده.
- كشفت قبل كده على عينك؟
- ما تقوليش إنك جاية كل المشوار ده كله ومستنية برة كل الوقت ده علشان تسأليني السؤال ده؟
- أكيد مش هو ده.. بس إللي جاية علشانه، بس علشان الوقت لقيت إن ده أهم من أي حاجة تانية ممكن أتكلم فيها.. ممكن ترد بقى؟
- لا ما كشفتش.
- ليه؟
- وأكشف ليه؟!!
- سؤال غريب.. علشان تشوف يا آدم..
- وأشوف ليه؟!!

- سؤال أغرب.. تشوف الدنيا يا أخي..
- مش عاوز أشوفها.. ياما شفتها وما عملتش بيها حاجة.
- يعني إنت ما اتولدتش كفيف؟!!
- لأ.. كنت بشوف عادي.. (مُتهكِّمًا) يمكن كنت بشوف أحسن منك كمان..
- تعرف بابا بيشتغل إيه؟
- لأ.
- دكتور عيون، وبيقولوا عليه أشطر دكتور عيون في مصر كلها، وعلى فكرة كلِّمته عليك وما عندوش مانع يكشف عليك.
- كتَّر خيرك وخيره بس أنا مش عاوز أكشف...
ويُكمل مبتسمًا:
- زيّ ما تقولي كده ما بتكشفش على رجّاله.
يعلو صوت ميادة بالضحك ويكمل آدم:
- كلامك ده فكرني بموقف من فترة مش فاكر بالظبط إمتى.. ست كبيرة من المتعوِّدين يعدُّوا عليا.. في مرة لقيتني مشغول وسرحان.. سألتني مالك.. قبلها بليلة كنت حلمت حلم غريب وللأسف نسيت تفاصيله مع الأيام ومع إني وقتها ولغاية دلوقتي لا بصدَّق ولا بتشغلني الأحلام، إنما الحلم ده سيطر عليّا لسبب معرفوش والست إياها كانت مشهورة في الحارة بتفسير الأحلام وأهل الحارة كانوا بيقولوا عليها بتاعة ربنا وإن تأويلها للرؤى مش بيغلط أبدًا.. حكيتلها الحلم وبمجرد ما خلَّصت الست وشَّها اتغير زيّ ما علي حكالي بعد كده، وكمان حسِّيت بنغمة حزن غلبت على صوتها

قالتلي أغرب كلام كنت ممكن أسمعه.. قالت: "إحمد ربنا إنك كفيف لإنك لو شفت هتبقى دي النهاية"، ورفضت تمامًا تفهِّمني أيّ تفاصيل أو تقصد إيه بالظبط في النهاية.. إنسي يا دكتورة.. إنسي، ده موضوع قديم.. الشيء بالشيء يُذكر بس.

- حد برضو يصدق في الكلام في ده..؟

- مش مصدق ولا حاجة ولا شاغل بالي الموضوع أصلًا.. القصة بس جت على بالي وإنتي بتتكلمي عن الكشف وإني المفروض أشوف.

- ها.. قبل ما تطردني زيّ المرة إللي فاتت وتقوللي الوقت إتأخر.. بكرة هاخد أجازة وهستناك برة الحارة بعربيتي لأن مركز بابا بعيد وما ينفعش يتمشَّاله.

- أنا فعلًا مش عاوز أكشف ولا عاوز أشوف.

- ولو قلتلك علشان خاطري؟

يصمت آدم لفترة من الوقت يحاول فيها التصدِّي لمشاعره ولم ينجح في الصمود طويلًا ثم يتابع:

- موافق.. بس مش هينفع الصبح.

- ليه يعني؟

- إنتي هتاخدي أجازة.. إنما أنا مقدرش آخد أجازة.. ممكن بعد الساعة ستة المغرب.

- متأخر أوي كده وبابا ما بيكونش هناك الوقت ده، ومش دي بس المشكلة إنما غالبًا الموضوع هيحتاج أشعّات ودي بتاخد وقت.

وتتابع مُتهكمة:

- إنت دكتور بقى وعارف.

- مستحيل آخد أجازة من الناي.. رابع المستحيلات.

- يعني يا آدم الناي أهم عندك من عينك..؟ عمومًا.. حاضر يا سيدي.. المركز فاتح يوم الجمعة للطوارئ هخلِّي بابا يروح لك مخصوص وأنا هعدِّي عليك بعد صلاة الجمعة آخدك ونروح.. تمام كده؟

- تمام يا دكتورة.

- برضو مش عاوز تعرف اسمي؟

- وبعدين معاكِ يا دكتورة؟ الوقت إتأخر ولازم تمشي.

تغادر وتكاد تطير من الفرحة التي غمرت قلبها لاستطاعتها إقناعه بمحاولة العلاج ولا شيء يفسد عليها تلك الفرحة إلا السؤال المُلِحّ الذي قلَّما يغيب عن عقلها؛ وهو: لماذا تفعل كل هذا؟.. هل هو تعاطف من نوع ما؟ مجرد محبة لعمل الخير؟.. هل هو الفضول أيضًا؟.. أم هو ذلك الشيء الذي لا تستطيع أن تواجه نفسها به وهو أنها قد وقعت بالفعل في غرامه.

لم تبذل ميادة الكثير من الجهد لإقناع والدها بالذهاب يوم الجمعة لتوقيع الكشف الطبي على آدم حيث أنه كان يريد أن يرى عن قرب ذلك الشاب الذي استحوذ على اهتمامه وبالطبع على قلب ميادة..

يوم الجمعة التالي...

في اليوم الموعود يذهب ثلاثتهم للمركز الطبي الخاص بالدكتور نبوي.. بالطبع لم تكن تلك المرة الأولى التي يرى آدم فيها.. لكنها الأولى عن قرب.. رأى فيه ذلك الشاب البسيط جدًا في مظهره العام ذو الثياب التي يدل مظهرها على قدمها الشديد ومع ذلك تبدو لامعة من نظافتها وإتقان كيَها.. يلفت نظره ملامح آدم الغير متكلفة والتي تفوح منها رائحة الطيبة والنقاء، نقاءاَ نادر أن تجده إلا في مجرى مياه عذب لم تطأه قدم إنسان .. يمُضي بعض الوقت في التأمّل فيه تزامناً مع تذكر حديث ميادة عنه إلى أن يوجِه له حديثه:

- قوللي يا آدم.. فقدت نظرك امتى؟

- من حوالي سبع سنين..

- وده حصل إزاي.. حادثة؟

- أبدًا.. يوم وفاة أمٍي زعلت زعل شديد ما أفتكرش إني زعلته قبل كده وبكيت زيّ الطفل الرضيع الجعان ونمت تقريباَ وأنا بعيط.. قمت تاني يوم ما بشوفش.

- الله يرحمها.. طيب وما حاولتش تكشف؟

- لأ خالص.

- ليه؟!

- لأن لقيت إن خلاص مفيش حاجة تستاهل أشوفها واتعودت على حياتي كده.. أمي كانت آخر حد وآخر حاجة كنت عاوز أشوفه.

تستسلم ميادة لحالة من الصمت والترقُّب وخفقان القلب السريع مع بدء د.نبوي إجراء الفحوصات المختلفة بالأجهزة الطبية المتعددة الخاصة بأمراض العيون، بل وأنه استدعى أطباء مختصين بعمل أشعَّات حديثة متخصصة ليصل للتشخيص الدقيق لحالة آدم..

إنتظار ميادة لنتيجة الفحص كانت أشبه بانتظار زوج خارج غرفة العناية المركزة لزوجته بحالة ولادة متعسِّرة..

مرت الساعتان تقريبَا ما بين إجراء الفحوصات وظهور نتيجة الأشعة، إلى أن أشار دكتور نبوي برأسه لميادة وكأنه يخبرها بأنه يريد التحدث معها خارج غرفة الفحص.. بالفعل تخرج ميادة ويتبعها د.نبوي تاركين آدم وحده.. لم تظهر على آدم أيّة علامة من علامات التوتر.. ربما فقط ما سيطر عليه هو هلعه من ذلك الإنصياع لميادة ومجاراتها فيما لا يريد.. ذلك الانسياق الذي لم يعتَد عليه.. لم يكن لديه ذلك الفضول ليعرف نتيجة الفحص على عكس حال ميادة ووالدها اللذان كان يتوقان لمعرفة ليس فقط حقيقة مرض آدم بل لمعرفة من هو آدم بالأساس..

ما أن يخرجا خارج غرفة الكشف تسأل ميادة والدها بلهفة:

- إيه الأخبار يا دكتور؟

- مش عارف أقولك إيه..

- قول كل حاجة يا بابا وبسرعة لو سمحت.

- الأجهزة والأشعَّات بتقول إن الولد سليم بنسبة ميه في المية،

والكشف بتاعي وخبرة السنين وآلاف الحالات إللي شفتها مخليني أروح ناحية إن الولد فعلًا مش بيشوف.

- يعني إيه؟ بيشوف ولا لأ؟

- يا دكتورة زيّ ما إنتي عارفة الطب برغم التطور الرهيب ما وصلش لكل حاجة.

- برضو يعني إيه؟

- يعني ما حدش يقدر يأكِّد فقدانه للبصر من عدمه إلا هو شخصياَ.. فعلًا مفيش دليل إنه عنده سبب عضوي، بس في نفس الوقت في أسباب كتير غير عضوية ممكن تسبَب فقدان للبصر زيّ الحالة النفسية أو الصدمات العنيفة.

- بابا.. أنا في حاجة جوايا بتأكِّدلي إن آدم....

يقطع استرسالها في الحديث قائلًا:

- في إختبار قديم أوي لما كنت على قوة الجيش أيام حرب أكتوبر كنا بنعمله على الشباب إللي بيعملوا نفسهم عميان علشان يهربوا من التجنيد -إختبار اخترعته أنا وزمايلي وقتها- ومع إنه مش آدمي لحد كبير بس من تجربتي الشخصية بيجيب من الآخر..

- نعمله.. بس إيه هو؟

يمسك بيد ميادة عائدًا بها صوب غرفة الفحص وهو يهمس في أذنها:

"دلوقتي هتعرفي..."

في مشهد مهيب خيَم عليه صمت من شدته تستطيع الأذن أن تلتقط أضعف الأصوات من على بُعد.. يمسك دكتورنبوي بإبرة

متوسطة الطول مصقولة الطرف ومن شدة إتقان صقلها ينعكس من على سطحها إضاءة مصباح الغرفة، وبسبابة وإبهام اليد الأخرى يفتح جفن عين آدم اليمنى ويصوِّب طرف الإبرة نحوها إلى أن اقترب من الحد الذي كاد أن يفقع بها عينه..

ظلت ميادة تترقب ردة فعل آدم وكذلك الدكتور نبوي.. لكن لم يكن هناك أية رد فعل من أي نوع حتى لو يسير.. حتى لم تهتز جفونه ولم يشعر بأيّ توتر أو خوف، كرّر الدكتور نبوي نفس الاختبار على عين آدم اليسرى وكان الحال كنفس حال قرينتها..

بعدها يشير دكتور نبوي لميادة برأسه إشارة تعني بأن الشاب بالفعل ليست لديه القدرة على الإبصار ولن تكون...

<u>بعد بضعة أيام...</u>

تنقضي بضعة أيام بعدها بأحداثها اليومية العادية.. إلى ذلك اليوم الذي ينادى فيه آدم على عم نبيل قائلًا:

- عم نبيل.. عم نبيل..

- جايلك يا دكتور..

يقولها وهو يتجه لآدم مسرعًا

- عاوز منك خدمة.

- تؤمر يا دكترة، احلم بس وعمك نبيل ينفِّذ..

- تسلم يا غالي.. فاكر الدكتورة الجديدة إللي بتيجي من وقت للتاني تاخد من عندك الشاي؟

- في بتاع تلاتة أو أربعة.. تقصد أنهو فيهم؟

- إ للي مرة من فترة كده بعد ما أخدت منك الشاي عدِّت عليّا ووقفت كلمتني فترة.

- اه.. اه افتكرتها.

- بقالها كام يوم مش بتيجي.. عاوزك تسأل عليها حد من الممرضات في المستشفى.

- وعرفت منين إنها مش بتيجي؟

- يا عم نبيل اسأل عليها وخلاص.

- حاضر يا دكتور.. والله أمرك عجيب يا دكترة.

لم يكن يدري عم نبيل بأن آدم لم يستمع لخطوات ميادة منذ ثلاثة أيام، والداري بالأمر يعلم بأن آدم لم يكن بحاجة للاستماع لخطواتها

لأن قلبه كان يشعر بقدومها وهو نفس ذات القلب الذي يشعر بأن شيء ما يحدث.. شيء سيَء يطرق الأبواب.. شيء ولا بد أن يحدث..

بعد مرور قرابة النصف ساعة.. يعود عم نبيل لآدم مُحدِّثًا إياه:

- كان عندك حق يا دكتور.
- سألت؟
- واحدة من الممرضات قالتلي إن أبوها عيان أوي والدكتورة معاه في المستشفى..
- ما عرفتش مرضه إيه؟
- المرض الوحش يا دكتور.
- سرطان؟
- والعياذ بالله آه.

بعد صمت حاول خلاله امتصاص صدمة الحقيقة سأله:

- محجوز في أي مستشفى؟
- مش عارف، بس أعرف لك..
- يا ريت وبسرعة.. بسرعة أوي.
- حاضر.. حاضر.. مسافة السكة.. أنا بس لو أفهم في إيه؟!

بعدها بقليل يعود عم نبيل لآدم بعد أن ذهب للتقصِّي عمّا يبتغيه وقد عرف بعض التفاصيل السطحية وأخبره بأن الدكتور نبوي يرقد في مستشفى دار الفؤاد وبالفعل يعاني من سرطان حميد ولكن خطورته بالرغم من كونه حميد تكمُن في تطوّره السريع ويكاد

يلتف حول النخاع الشوكي مما قد يُفقده الحركة للأبد أو قد يقوده للموت ببطِء..
لم يدري آدم ماذا يفعل، فهو يريد معرفة التفاصيل الدقيقة للأمر ليكون بجانب من هو أسير قلبها -ميادة- ولم تكن لديه أي وسيلة غير أن يدعو الله أن تظهر هي وتخبره بما يحدث..
وكأن الله لا يريد لآدم حيرة، فقد ذهبت إليه مساء نفس اليوم في مسكنه وعرف منها أن أباها يعاني من ورم حميد على بُعد عدة مليمترات قليلة من عموده الفقري وأن الورم برغم أنه حميد إلا أنه كاد أن يقترب من النخاع الشوكي ممّا قد يُسبَب الوفاة السريعة.. علم منها بأن أفضل أطباء المستشفى رفضوا إجراء الجراحة نظراَ لمكان الورم الشديد الحساسية والتفافه على مجموعة كبيرة من الأعصاب المُغذِّية للعمود الفقري.. حتى أن المستشفى راسلت بعض الأطباء العالميين المتخصِّصين في هذا النوع من جراحات الأورام وكان الإعتذار هو سيد الموقف.. أخبرته وهي تذرف الدموع بأنها تنتظر وفاة أبيها بين لحظة وأخرى.. وشعر هو من حديثها بأنها سوف تموت أيضًا بموت والدها..

ظل آدم طوال الليل يفكر ولم يغفل له جفن والأفكار ترمي به بعيدًا ثم تعود به مُجددًا، تلافيف مخه لا تستطيع فك شفرات المعادلات اللوغاريتمية التي تشبع بها خُلده.. يشعر وكأن عقله تضاعف حجمه عشرات المرات من كثرة الأفكار التي أُتخم بها وأصبح على وشك الإنفجار.. يتذكر قول الرسول صلى الله عليه وسلم

"أرحنا بالصلاة يا بلال" فيقوم مهرولًا لإقامة الصلاة، فيصلي حتى انهارت قواه وخارت قدماه فيظلّ على وضع السجود يدعو الحنَّان المنّان بكل ما يتوارد لعقله من أدعية ويظل هكذا حتى طرق الصباح أبواب السماء.

ترجّل في ميعاده اليومي المُعتاد ليذهب لنفس المكان ولكن في هذه المرة لم يكن ينتوي العزف إنما ليقابل عم نبيل ليطلب منه أن يحضر له عدد من الشموع وكشاف ضوئي صغير، وما أن يحصل عليهم يعود لبيته حاملًا إياهم ويغيب بعدها عن المشهد تمامًا.

<u>بعد أسبوع من آخر لقاء بين آدم وميادة..</u>

بينما تجلس ميادة بجانب والدها على سرير مرضه في المستشفى - وقد أُعطيت له جرعات من المورفين لتخفيف آلامه جعلته غائبًا عن الوعي- يدخل عليها مدير المستشفى وصديق والدها مُبتهجًا ويقول:

- عندي خبر حلو ليكي يا دكتورة.

- خير يا دكتور؟.. يا رب خير..

- النهاردة الساعة ٦ المغرب هنعمل الجراحة..

- إزاي؟!.. بجد والله!! ألف حمد وشكر ليك يا رب.. بس إيه حصل فجأة كده؟!

- وصلنا لدكتور جراحة أورام بصّ على تقارير الحالة والأشعّات وسمع للدكاترة إللي كشفوا على دكتور نبوي وقرر إنه يعمل له العملية.

- اسمه إيه؟ بيشتغل فين؟ وبعدين هو ما كشفش على بابا!..

وتصمت قليلًا وتكمل:

- وكمان نتيجة العملية مش مضمونة.. ممكن بابا ما يقومش تاني.. مش الدكاترة قالوا كده؟

- حالة دكتور نبوي مش محتاجة كشف يا دكتورة لأن خلاص كل حاجة باينة من الأشعات، وآسف للي هقوله ده.. بس لازم يتقال..

- إتفضل يا دكتور

يستطرد مدير المستشفى وهو ينظر لصديق دربه وهو مُمَدَّد على

فراش المرض، يحاول مُجتهدًا حبس قطرات من الدموع كادت أن تقفز من بين جفنيه:

- كده كده لو إستنينا، الحالة ميئوس منها ومسألة وقت مش أكتر ولأننا وصلنا لحد موثوق فيه ووافق إنه يعمل العملية يبقى لازم نقبل لأن مفيش حل تاني.. إللي هيعمل العملية دكتور يبقى صديق دراسة دكتور عندنا هنا في المستشفى، وطبعًا زيّ ما انتي عارفة إن الدكاترة هنا كلهم مدرسين أو أساتذة في الجامعة وبيقولوا عنه إنه من أشطر الدكاترة في مصر، والفترة إللي فاتت كان بيشتغل في أستراليا ورجع مصر من فترة، وطبعًا أنا ما اكتفتش بالكلام ده بس لكن فعلًا سألت عنه دكاترة زمايلي من أساتذة القصر العيني عنه وقالولي إنه فعلًا ممتاز وكان مدرس في الكلية من فترة وكان من أشطر الجراحين في القصر العيني.. هو اسمه إدمون رزق.

- مش عارفة أقولك إيه..

- تقولي توكلنا على الله.. تقريباَ في حد بيحبكم أوي دعالكم في وقت كانت فيه أبواب السما مفتوحة.

بعد لحظة صمت ترد ميادة :

- يا رب خير.. يعني حضرتك رأيك كده؟

- أكيد.. ربك مش بيجبلنا غير الخير حتى لو بان لنا عكس كده.

- خلاص.. توكلنا على الله.

- خير.. أنا متفائل جدًا..

بعد أن يرمق دكتور نبوي على سرير مرضه مجددًا، يعود بنظره لميادة ويوجِه لها حديثه:

- عارف إن الموضوع قاسي وصعب عليكي وعارف إنك مش هتقدري تكوني دكتورة التخدير وعلشان كده اتفقت مع أستاذك الدكتور محمد إسماعيل علشان يقوم بالتخدير.

بعد لحظة تفكير من ميادة في كل ما قاله مدير المستشفى، تنظر إليه وقد فاضت عيناها بالدموع ثم قالت:

- أنا إللي هخدَّر بابا يا دكتور.

- مُتأكدة يا ميادة؟

- مفيش مرة كنت متأكدة فيها من حاجة زيّ دي.

- إتفقنا.. توكلنا على الله.

يتركها مع دموعها ويذهب لتظلّ هي وحيدة مع والدها ليمر بخاطرها كل لحظة قضتها معه منذ نعومة أظفارها وحتى قبل دخوله المستشفى لتلقِّي العلاج...

كخلية النحل كانت غرفة العمليات التى يتوسّطها دكتور نبوي مُمَدَّدًا على سرير الجراحة والكل منشغل بعمله من طاقم تمريض.. وأطباء مساعدين لتجهيز البدء في الجراحة، وميادة تتوسّط المشهد محاولة تجميع كل ما تبقى لديها من تركيز لحين وصول الطبيب الجراح للبدء في الجراحة التي يعلم الله وحده نتيجتها.

أخذت تتابع كل شئ بدقة ليطمئن قلبها. لم تنفك من استعدال وضع رأسه على وسادة السرير المطاطية حتى تطمئن بأنه مستريح بالرغم بأنه لم يكن يشعر بأي شيء..

في تمام السادسة ولج الجراح لداخل غرفة العمليات مُتَّجهًا صوب سرير الجراحة، وبصره لا يزوغ عنه حتى وصل إليه، ويقف في مكانه بين اثنين من الجراحين المساعدين له وميادة تنظر إليه غير مُصدِّقة لما تراه عيناها، عاجزة عن التصرف وكأنها قد أُصيبت بشلل مُفاجئ، فقد كان الطبيب هو آدم -عازف الناي الضرير- وظنَّت أنها تحلم أو أنها شردت بخيالها فتخيلت أنه حبيب قلبها إلى أن استقر بموقعه..

تطلع الجراح ببصره لكل طاقم الجراحة -عدا ميادة- وكذلك أخذ يتفقد أدواته بعناية تامة بينما يرمق الشاشة التي يظهر عليها رسم القلب للمريض وأيضًا رسمًا بيانيًا لمُعدَّل تنفُّسه، وبعد أن استقر في يقينه بأن كل شيء على ما يرام.. ومن دون حتى النظر لها يسألها:

- مُستعدة يا دكتورة؟

سمعت صوته.. كان هو صوت آدم.. لم تدرِ ماذا تفعل. أو بماذا تتفوه. كانت المفاجأة أكثر من صادمة.. كيف أن عازف الناي الكفيف البصر سيقوم بإجراء جراحة من أخطر الجراحات.. ولمَن؟! لوالدها.

كل هذا وأكثر جال في ذهنها للحظات إلى أن يُكرر سؤاله:

- يا دكتورة.. مُستعدة؟

كان عليها أن تُقرَر، تُقرَر دون أن تفهم ماذا يحدث ولماذا يحدث فأجابت:

- آه تمام.. مُستعدة.

وإذا به يُكرَر نفس السؤال للطبيب المساعد:

- مُستعد يا دكتور؟.. توكلنا على الله.
أومأ الطبيب برأسه بالإيجاب وكذلك طاقم العمل بالكامل. فيتحدث آدم بصوت يسمعه الجميع:
- توكلنا على الله.. عاوز الكل يتابع نظراتي لإني هبقى مركِّز وكلامي هيكون قُلَيل..
يومئ الجميع مُجددًا كعلامة منهم باستيعابهم لما لفت إليه إنتباههم..
مُستحوذًا عليها الحذر تبد أ ميادة إجراءات التخدير.. يتملَّكها التوتر في البداية وتشعر برجفة تسري خلال جسدها بالكامل فتنظر لآدم فوجدته ينظر لأبيها لتكون المرة الأولى التي ترى فيها عينه فتشعر بطمأنينة أوقفت سريان الرجفة إلى أن تنتهي من خطوات التخدير كاملة، مُعطية الإشارة لآدم بالبدء بالجراحة.
لم تكن تنظر إلى شيء بل إلى تلك الأنامل التي كانت عازفة للناي بالأمس القريب الناي وهي الآن تُمسك بأدق الأدوات الجراحية وأشدها خطورة وبنفس ذات الفن التي كانت تعزف به كانت تلك المهارة في استخدام تلك الأدوات.. ذهول تام سيطر عليها وهي ترى بعينيها قدرته المذهلة في قيادة فريق العمل وكيف هو يستأصل الورم بمهارة منقطعة النظير..
كطبيعة عمل طبيب التخدير تنتهي مهمته الأولى مع انتهاء التخدير ليبدأ مرة أخرى بإجراءات الإفاقة بعد انتهاء الجراح من عمله ولكن حال ميادة لم يكن هكذا أو حتى يقترب.. لأن المريض هو والدها.. والجراح هو قُرَّة عينها..

برؤيتها لمهارته بدأ ت حدة القلق في الذوبان شيئًا فشيئًا وثبت في يقينها أن والدها بيد أمينة لا تدَّخر جهدًا ولا طاقة ولا موهبة لإتمام مُهمته بنجاح وهذا ما دعا إلى شرودها أوقات كثيرة خلال الوقت الطويل للجراحة والذي استمر لخمس ساعات متواصلة..

الأسئلة التي لا تجد لها إجابة تدور كالحوامة داخل ثنايا عقلها.. هل تحلم؟.. هل هو كابوس؟ أباها على بُعد خطوة من الموت أو الحياة.. هل سينجو؟ كيف استطاع آدم إخفاء حقيقته وهي التي دومًا تقرأ ما بين السطور أو هكذا اعتقدت..

تتعجب من انقلاب الأحوال بعدما كان المريض -والدها- يقوم بفحص الجرَاح -آدم- والذي هو ذاته مَن يجري له الجراحة.. وكيف يكون آدم هو نفسه الطبيب آدمون رزق؟.. وكيف هي الطبيبة المحترفة تتلقى الأوامر من عازف للناي؟.. وكيف حدث كل هذا والأهم؛ لماذا يحدث؟.. تنتهي بها التساؤلات للسؤال الأصعب في الإجابة وهو ماذا سيحدث؟

تحاول وهي تنظر ليده وقد انشغلت بإستصال الورم من أحشاء والدها أن تجد تفسير منطقي لما يحدث أو حتى غير منطقي حتى يُشفَى غليلها، وبعد كل محاولة منها تفشل وكأنها ترتطم بحائط سدّ لا مفر منه إلا الإرتداد للخلف..

تمرّ بعقلها كل ذكرى جمعتهما ابتداءاَ من أول يوم رأته فيه وكيف كان إنطباعها بأنه ليس إلا مُجرّد شحّاذ يحاول خداع الناس حتى يحصل على أكبر قدر من المساعدة المالية ومرورًا بالفضول الذي افترسها بلا ملل أو تملُّل لتعرف حقيقته ووصولًا لهذه اللحظة التي

يقف فيها أمامها وقد تربّع على عرش غرفة العمليات بكل براعة.. تدرك كم هي تعشقه ذلك العشق الذي لم يطرق قلب بشر قبلًا، وتتمنى لو تأخذ مكان تلك الممرضة التي لا عمل سوى تجفيف عرق آدم الذي تصبّب من قسوة المجهود وشدة التركيز، لتُجفِّف عرق حبيبها الذي يداوي أباها.

ينتهي آدم من الجراحة وبعد أن يطمئن على كل تفصيلة وأن كل شيء قد تم على ما يرام.. يخيط الجرح غرزة تلو الأخرى إلى أن ينتهي ثم يعطي الإذن لميادة بإفاقة المريض بإشارة منه، وبدورها تنصاع فورًا لما أمر به وينتظر هو حتى الإطمئنان عليه وما أن يفيق يتجه آدم فورًا للخروج من غرفة العمليات شاكرَا الطاقم المساعد له بينما كانت ميادة منشغلة بالإطمئنان على والدها.

مندفعة كالبرق بعد أن اطمأنت على والدها تتجه ميادة لمكتب مدير المستشفى مقتحمة إياه متجاهلة أيّة قواعد بروتوكولية، مُتسائلة:

- هو فين الدكتور إدمون يا دكتور؟

- سيبيني الأول أباركلك على نجاح العملية.. دكتور نبوي اتكتب له عمر جديد.

- الله يبارك فيك.. كنت عاوزة أشوف الدكتور إللي عمل العملية وأطَّمن بنفسي منه وأشوف هيتابع بابا إزاي بعد العملية وقبل ما آجي لحضرتك دوّرت عليه في كل المستشفى مالوش أي أثر.

- هو فعلًا مشي من عندي من خمس دقايق تقريبًا...

- مشي! إزاي؟!

- هو طمّني على نجاح الجراحة وإدّى تعليماته للمرحلة الجاية لطقم الدكاترة المتابعين لحالة د.نبوي وقال إنه لازم يمشي لأنه على سفر و إنه لازم يلحق طيارته..

- مسافر!

- وأكّد إن باباكي بعد يومين تلاتة بالكتير هيمشي على رجله وهيروح البيت كمان وهيكمّل علاج هناك.

- الحمد لله.. ألف حمد وشكر ليك يا رب.

تمضي وهي لا تدري أتسعد لنجاة والدها وعودته إليها سالمًا أم تحزن لفراق مَن أحبت..

بعد ثلاثة أيام من إجراء الجراحة...

يعود الدكتور نبوي لبيته ومعه ميادة التي تكاد لا تفارقه.. لم يكن يدري من أمره شيء، فكان آ خر مشهد يتذكره هو عندما خرّ ساقطًا في غرفته عند نهوضه من مرقده.. قصّت عليه ميادة ما حدث بعدها من نقله للمستشفى وما تخلَّلها من أحداث وصولًا لإجراء الجراحة.. أول شيء فعله عند دخوله إلى منزله هو التحقُّق بيده من سلامة وإستقامة وضع تابلوه البحر الهائج وتحدَّث إلى ميادة:

- الحمد لله.. أد إيه الإنسان ده ضعيف.. أبوكي عجِز خلاص.

- بابايا في عز شبابه.. وواقف على رجله ولا شاب عنده عشرين سنة ما شاء الله.

يبتسم من مزحة ابنته ويسأل:

- مين عمل لي العملية؟

وقع السؤال على ميادة كان أشبه بسقوط شخص من أعلى ناطحة للسحاب، ثم تُجيب بعد لحظة صمت قصيرة:

- دكتور اسمه إدمون رزق.

ظل يتمتم بالإسم ثم سألها:

- مين ده؟!.. ما سمعتش عنه قبل كده.

تستطرد وهي تحاول تجنُّب النظر لعينيه بشكل مباشر:

- ولا أنا.. زيّ ما يكون ربنا بعته من السما.

- فعلًا..

بعد أن تستجمع ما تبقى لديها من شجاعة، تقول:

- بابا.. أنا لازم أقولك على حاجة..

- خير يا بنتي؟!

- إدمون رزق.. يبقى آدم.

- آدم مين يا ميادة؟

- آدم.. الشاب بتاع الناي.

لولا عدم قدرته النهوض لفزَّ من جلسته من هول المفاجأة التي اقتربت من حد الصدمة ويصيح:

- إيه؟.. بتقولي إيه؟.. بتهزري ولّا دماغك جرى فيها إيه؟!

- لا دي ولا دي.. آدم هو إللي عملك العملية.

أخذت تقُصّ عليه ما عرفته عنه من مدير المستشفى وما رأته بعينها تفصيلًا.. وكيف هي من حينها إلى الآن في حالة ذهول وعدم تصديق، وبالطبع هو نفسه أصبح حال والدها، والذي بادرها آمراً بمجرد أن انتهت من إطلاعه على ما حدث:

- ميادة.. بكرة الصبح تودِّيني ليه.

- بابا.. بتقول إيه بس؟! وبعدين إنت لسه تعبان.

- هي كلمة واحدة.. بكرة يعني بكرة.

ميادة : حاضر.

بحلول الغد تذهب ميادة لآدم بعد صلاة الجمعة وكل ما يجول بفكرها كيف ستواجهه وماذا سيكون نمط الحوار بينهما، إلى أن تصل وتطرق باب مسكنه وتسمع الإذن بالولوج ولم تفعل أي شيء غير استفسارها عن عدم ممانعته من لقاء والدها، ولم يُبدِ آدم أي مانع على عكس ما توقعت هي، ويرافقها إلى حيث ينتظرهما دكتور نبوي على بداية كوبري قصر النيل من ناحية ميدان التحرير بدون كلمة واحدة سواء منها أو منه حيث كان اللقاء المُرتقب..

برغم حالة التوتر وعدم التصديق التي تسيطر على وجدان وجسد دكتور نبوي، لكنه بمجرد رؤيته لآدم قد تبدَّدت.

طلب من ميادة الانصراف ليختلي بآدم.. تأبّط دكتور نبوي ذراع آدم سائراَ به على كورنيش النيل.. والناظر للمشهد من بعيد لم يكن ليعلم أيّهما المُبصر وأيّهما الكفيف لولا العصا المعدنية التي تتدلَّى من يد آدم اليمنى.. ليبدأ آدم الحوار:

- ألف حمد الله على السلامة يا دكتور.

- الله يسلمك يا دكتور وألف شكر على إللي عملته.

- ده أقل حاجة كنت ممكن أعملها، ويا ريت كان في إمكاني أكتر كنت عملته.

- ليه يا آدم؟

- لأنه الواجب ولإني حسيت إنه لازم أعمل كده.

- إحكيلي يا ابني.. إيه الحكاية؟ وليه العصاية تاني؟ وليه عامل في نفسك كده؟

- مع إني مش مضطر أحكي ولا أبرّر، ولا حتى اتعوِّدت على كده..

بس هحاول أجاوبك.

- سامعك.. وأصلًا مش عاوز أعمل حاجة غير إني أسمعك..

- من زمان جدًا.. تقدر تقول من بداية ما بدأت أوعى على الدنيا وأنا شايف إن الدنيا ما تستاهلش.. دايمًا كانت وما زالت في تقديري زيّ اللعبة الصيني إللي بتتكسر مع أول لمسة مع إن في أغلب الأحوال بيكون شكلها حلو وجذَّاب.. مجرد حاجة بتبرِق من برة ومن جوه فاضية وريحتها وحشة.. كنت كل ما أكبر كل ما بيزيد يقيني إنها ما تستاهلش تتعاش، وخصوصًا لو إنت في مكان زيّ بلدنا.. الحياة دايمًا بالعكس.. المنطق والعقل انتحروا من فوق كوبري زيّ الكوبري إللي ماشيين عليه دلوقتي، وللأسف محدش قدر إنه ينقذهم من الغرق.. الحقيقة إن محدش حاول ينقذهم أصلًا.. بس في وسط كل ده كانت في حاجات تستاهل زيّ أمي وأخويا وخطيبتي الله يرحمهم.. أخويا اتوفى صِغير وهو عنده حوالي ٢٥ سنة بفيروس في المخ، وبعدها بسنتين وفي يوم واحد أمي ماتت، وخطيبتي اتوفِّت بين إيديا وأنا بعملها عملية، ومن يومها أيقنت إن مفيش حاجة تستاهل تتشاف ولا تتعاش، وللأسف الحياة أو الموت مش إختيار وعلشان كده قررت أعيش على هامش الدنيا ولا إني أشوف ولّا لأ إختيار.. اخترت إني ما أشوفش تاني، وللأبد..

- برغم كل كلامك إللي حاسّه فوق ما تتخيل.. بس في حاجات تانية كتير تستاهل تتعاش وتتشاف كمان.

- ممكن يا دكتور توصف لي إنت شايف إيه دلوقتي؟.. يعني الناس إللي ماشية.. العربيات.. إوصف لي المشهد كله.

- حوالي أربع أو خمس مراكب كبار راكنة على شطِّ النيل من ناحية الفندق إللي أول الكوبري ومشغَّلين موسيقى بصوت عالي... وشوية شباب صغير عليها بيتنططوا وبيرقصوا على الموسيقى الصاخبة جدًا.. الطريق تقريباَ واقف من الزحمة وكترة العربيات.. سواق تاكسي بيتخانق مع سواق ميكروباص علشان كَسَر عليه فجأة وواضح إنهم هيتخانقوا خناقة ممكن حد فيهم يروح فيها.. واحد وواحدة شكلهم بيحبوا بعض سرحانين مع منظر النيل وبياكلوا ذرة وماسكين إيدين بعض.. ناس تانية ماشية بسرعة وشكلهم مستعجلين.. أتوبيس نقل عام قالب الدنيا من دخنة العادم بتاعة الشاكمان.. اتنين شباب بيتخانقوا وماسكين في هدوم بعض.. واحد بيعاكس بنتين ماشيين..

يقطع آدم وصف دكتور نبوي لما يرى قائلًا:

- كفاية.. كفاية يا دكتور.. شوفت قلت كام حاجة ما تستاهلش تتشاف.. ضيف عليهم الصراعات والنفاق والرياء والإنحدار في الأخلاق والمبادئ.. الخناقة على الفتافيت.. السبق إللي بين البشر وبعضهم على مفيش وإللي الكُل فيه خسران..

- بس الصورة مش سودة أوي كده.

- عندك حق طبعًا.. بس الأبيض فيها قليل أوي لدرجة إنك عاوز ميكروسكوب علشان تشوفه، وعلشان كده اخترت إني ما أشوفش تاني.

لم يُبدِ دكتور نبوي اقتناعه الكامل بمنطق آدم.. لكنه في الوقت ذاته لم يستطع الرفض ويواصل حديثه:

- وإيه قصة إدمون دي؟

- اسمي الحقيقي إدمون رزق.. ا د م و ن رزق

- إزاي؟

- إحنا صعايدة بالأساس.. من المنيا.. بني مزار.. أبويا وأمي ما كانش بيعيش لهم ولاد، وزيّ ما إنت عارف عوايد الصعايدة لما يحصلهم كده.. كل تفكيرهم بيروح ناحية إنهم محسودين أو حد عمل لهم عمل، وعلشان كده بيسمّوا المسلم باسم مسيحي والمسيحي باسم محمد، وفعلًا عملوا معايا كده.. الصدفة أو الأدقّ قدري إني أعيش، ولما كبرت وكنت في إعدادي وعلشان أبويا اسمه رزق كانت كل الناس بتفتكر إني مسيحي.. وعلشان زيّ ما إنت عارف برضو إن في مصر مهم أوي تبقى معروف إنت مسيحي ولا مسلم، ومع إني مش فاهم هتفرق في إيه لولا إننا ورثنا افكار غريبة جيل بعد جيل وتركيزنا للأسف مُستنزف في حاجات سطحية، المُهم.. زمايلي في المدرسة بقوا ينادوني (آدم) أول تلت حروف من اسمي علشان يبقى مفهوم إني مسلم وفضل معايا الاسم ده لحد دلوقتي.

بعد ان جال بعينه مُستطلعاً مجرى النيل، يعقب دكتور نبوي و كأنه يُحدث ذاته:

- عازف الناي طلع دكتور.. والدكتور إللي كان بيكشف على الكفيف طلع هو المريض، وإللي عالجه العيان.. إللي أصلًا طلع بيشوف.. وبنتي إللي كانت فاكرة إنها فاهمة كل حاجة ما طلعتش فاهمة أي حاجة.. والفقير إللي ساكن فوق سطح بيت قديم طلع أغنى الناس.

- أغنى الناس؟!

- أكيد.. ومش المفروض إنك تستغرب.. إنت قدرت تعمل حاجة كتير غيرك حاولوا وما قدروش.. إنك ما تعوزش حاجة من الدنيا، وإللي مش عاوز حاجة ده غني وأوي.. بس اسمحلي أقولك إنك برغم كونك إنسان جميل وشفَّاف، كدبت على بنتي.

- في إيه؟

- حقيقة كونك طبيب.

- لو عاوز تسمِيها كدب موافق.. بس أنا رأيي إني قولت نص الحقيقة وإنه فعلًا من صُغري وأنا عندي موهبة التشخيص، بس بأي حال من الأحوال ما كانش ينفع أقول الحقيقة كاملة.

- ليه؟

- يمكن لأن أنا نفسي كنت عاوز أنسى إني دكتور وفي نفس الوقت مش عاوز الناس تعاملني على أساس إني دكتور حقيقي، والأهم لإني ما كنتش عاوز الدكتورة تتعلق بيا أكتر.

- أعتقد إننا هنختلف شوية في منطقية إن نص الحقيقة هل هي كدب ولا صدق، على أي حال في سؤال فعلًا محيرني..

- إتفضل؟

- لما كشفت عليك، كل حاجة كانت بتأكد إنك كفيف.. إزاي؟

- سبع سنين أو أكتر مش بستخدم عيني لدرجة إني نسيت إن ليّا عين ممكن أشوف بيها، وحضرتك يا دكتور أستاذنا ومش معلومة جديدة بالنسبالك إن العين مجموعة من الأعصاب والعضلات إللي لو ما استخدمتش هتضمر شوية بشوية لحد فعلًا ما تفقد القدرة

على الإبصار.

- عندك حق، بس إزاي فجأة رجعت تشوف وعملت لي العملية؟

- لما عرفت الخبر وحسيت إني لازم أعمل حاجة.. جبت كشاف صغير وشمعة وقعدت تلت أيام ما بخرجش وقاعد في الضلمة وقعدت أدرّب عيني سنّة سنّة على ضوء الكشاف الضعيف لساعات وساعات لحد بصري ما ابتدى يردّ تاني، وبصراحة ما كنتش متأكد من النجاح بس حاولت وربنا أراد.. مع إني كنت ممكن جدًا أفقد البصر للأبد فعلًا بعد تَعرّض عيني للضوء بعد كل السنين دي، وإعتقادي إن ربنا أراد علشان بس أكون سبب في إنك تكون ماشي على رجلك جنبي دلوقتي.. بعد كده كان فاضل إني أحلّ مشكلة أكبر...

يلتقط دكتور نبوي طرف الحديث ويقول:

- إنك إزاي تقدر تعمل لي العملية؟

- بالظبط.. ولإني لما كنت مدرس في القصر العيني من حوالي تمن سنين كنت عارف إن دار الفؤاد حلم لأي دكتور علشان المرتبات إللي بتدّيها وكمان السمعة الكبيرة إللي بياخدها أي دكتور بمجرد الشغل هناك، وعلشان كده كنت متأكد إن هيكون ليا زمايل هناك.. وفعلًا بعد ما بصري رجع لي كان أول مشوار أعمله.. للمستشفى، وما كانش صعب أعرف أسماء الدكاترة إللي هناك، وفعلًا كان ظنّي في محله إن كتير منهم كانوا هناك وقابلت واحد فيهم فعلًا وفهّمته إني سافرت أستراليا من فترة وعاوز أرجع أشتغل في مصر، وعلشان تدابير الأقدار لقيته هو إللي بيعرض عليا حالتك

وقاللي إن ده التحدي إللي هيرجّعني وأنا حاطط رجل على رجل.. وفعلًا عرّفني على مدير المستشفى واتفقنا على الجراحة..

- في حاجة كمان محيّراني.. بنتي وصفت لي إزاي إنت شاطر وإيدك حسّاسة بشكل مش طبيعي.. إزاي بعد كل السنين من عدم ممارسة الجراحة قدرت تعمل عملية كبيرة زيّ دي؟

- هتصدقني؟

- أكيد.. من أول حوارنا وأنا مش عارف أعمل حاجة غير إني أصدقك.

- كل ليلة تقريبًا كنت بحلم إني بعمل عملية وكنت بحسّها إنها بجد لدرجة مش طبيعية، كنت بحس إني فعلًا في أوضة عمليات لدرجة لما كنت بقوم من النوم كنت بحسّ إن إيدي واجعاني من مسكة أدوات الجراحة.. حتى وأنا بعزف على الناي، كتير من الأوقات كنت زيّ ما أكون بعمل عملية لحد وإيدي ماسكة مشرط مش ناي..

مش عارف إللي بقوله منطقي ولا لأ.. يمكن ربنا كان له حكمة من كده إني أكون دايمًا حاسس إن إيدي لسه عندها حساسية الجراح.. وحتى لو غير كده ما كانش عندي أي حل تاني غير إني أخوض المغامرة وأعمل لك العملية والتوفيق بتاع ربنا خصوصاً لما عرفت ان كل الدكاترة رفضوا يعملوا العملية..

- وكل ده ليه يا آدم؟

- علشان بنتك يا دكتور.. لو كان لا قدر الله حصل لك حاجة بنتك ما كانتش هتعيش.

ويصمت لثانية ويُردف:

- وعلشانك إنت كمان يا دكتور.

- علشاني؟ّ! غريبة دي! إنت أصلاً ما تعرفنيش.

- أنا حد بيَصدق إحساسه.. وخصوصًا لو الواقع ختم على الإحساس بختم النسر.

- مش فاهم حاجة.

- يعني إحساس إنك من الناس إللي لو أمِّنتهم أمانة، هيموِّت نفسه علشان يرجّع الأمانة وينفِّذها.

- تقصد أي امانة؟

- أعظم أمانة في الكون يا دكتور إنك تحمل رسالة وتبلغها.. ودي كانت الأمانة المُكلَّف بيها كل الرسل.. لولا إن الرسل حملوا الأمانة وسلِّموها من شخص لشخص لا كان بقى في ملة ولا دين ولا كان أصلًا حد عايش على وجه الأرض عرف ربنا.. الحاجة التانية إنك أبو الدكتورة.. وإللي يربي حد زيّها ومن غير ما أعرفه لازم أكون متأكد إنه راجل عظيم.

- هبقى كداب لو قلت إني فاهم كلمة واحدة.

- كله بوقته.. كله بوقته يا دكتور.

- موافق، بس إسمحلي أرجع للي قلته من شوية.. إن لو كان جرالي حاجة بنتي ما كانتش هتعيش.. ممكن أعرف ده يفرق معاك في إيه؟

- ما عنديش إجابة للسؤال ده.

- ليه؟

- لأن مش كل الأسئلة ليها إجابات.
- أنا زيّ أبوك.. إتكلم معايا بوضوح أكتر.
ولم يسمع سوى صمت آدم، فسأله:
- حبيتها؟
- لو كان على الحب بس، كانت القصة بقت سهلة إنما بنتك كانت الخيط الرفيع إللي رجّع ليّا إحساسي تاني بالدنيا.. الدنيا إللي رفضتها.. بنتك كانت السبب إللي كان هيرجع يشدّني تاني للدنيا.. الدكتورة كانت بالنسبالي النداهة إللي دايماً سامع صوتها في وداني وبتقولي تعالى.. وما أكدبش عليك حاولت كتير أعمل مش سامع بس ما قدرتش.. كان صوتها أقوى من إني أسدّ وداني عنه.
- بُص يا آدم.. أقصد اسمعني.. هو غريب إللي إنت هتسمعه ده بس هقولهولك.. إيه رأيك....
يقاطعه آدم سريعًا ويقول:
- ما بقاش في وقت..
- إنت عرفت هقولك إيه؟
- تقريباَ.
- إزاي؟
- تقدر تقول إحساس.. يمكن إستنتاج.
- يمكن إحساسك يكون غلط.
- حتى لو..عموماً مفيش وقت لأي حاجة.
- ليه يا ابني؟
- أنا تعبت من المشي.. ممكن توصّلني لحد أول الحارة.

- مش هنكمل كلامنا؟
- وقت تاني إن شاء الله.
- قبل ما تمشي عاوز أقولك على حاجة أخيرة.
- إتفضل.
- يا ريت تحاول تفهم إللي هقوله..
- هحاول.
- إنت عملت حاجة ناس كتير حاولت تعملها وفشلت..
- إللي هي؟
- إنك عزفت على مقام ما حدش قدر يوصل له، وأوتار محدش قبلك عزف عليها..
- لو تقصد الناي؟.. الناي ملوش أوتار..
- لا يا ابني.. عزفك الأهم والحقيقي كان على أوتار الحياة نفسها.. سمّعتنا نغمة كنا المفروض نسمعها من زمان أوي وللأسف ضيّعنا وقت طويل قبل ما نسمعها، يمكن لأن مفيش حد كان قادر يظبّط النغمة من الأوتار زيّ إنت ما عملت، وإحتمال علشان ما كناش عاوزين نسمعها..
- أنا أقل بكتير من كل ده..
- بالعكس يا ابني، "كل ده" أقل منك وبكتير.. تعرف يا آدم..
- خير؟
- عزفك على الأوتار دي محدش هينساه مهما طال الزمن ولا النغمات دي هتختفي مهما مرَت بينا السنين.. نغماتك يا دكتور آدم هتفضل حوالينا وجوانا كمان..

تُخيَم عليهما لحظات من الصمت إلى أن يتابع دكتور نبوي وقد بدأت عيناه تذرفان الدموع:

- شكراَ.. ألف شكر يا آدم.

- ما عملتش حاجة تستاهل أي شكر ولو على العملية زيّ ما قلت لحضرتك...

يقاطعه دكتور نبوي ويقول:

- الشكر مش علشان العملية.. شكري الكبير علشان إنت خليت البحر الهايج جوايا ٢٤ ساعة يهدى ويصفى. ورجعت من تاني أقدر أشوف الشطّ إللي ما كنتش عارف أشوفه لسنين بسبب هيجانه وإرتفاع أمواجه.

بعد أن يصل به لمدخل الحارة، أخذ دكتور نبوي يفكر فيما جرى وفهم لماذا وقعت ميادة في حبه وكيف لا تعشقه في الوقت الذي أحس هو نفسه أنه يتحدث إلى ابنه الذي لم ينجبه بالرغم من أنه لم يقابله إلا بضعة دقائق..

اليوم التالي.. فجراً

على صوت أقدام تدبّ في بهو منزل ميادة قبيل الفجر بقليل تصحو مرتبعة وتندفع خارجة من غرفتها ناحية الصوت فتجد أباها متوتراَ يطوف بالبهو ذهاباً وإياباً فتسأله:

- مالك يا بابا.. فيك إيه؟ تعبان؟

- قلبي مقبوض يا بنتي.

- خير؟.. فهِّمني براحة.

- مش عارف.. بس قلبي وجعني..

ثم يصمت قليلًا ويصوِّب نظره نحو ميادة ويُحدِّثها بلهجة الأمر:

- أنا عاوز أروح لآدم حالًا.

- دلوقتي؟!

- آه دلوقتي.

- خير بس؟!.. أفهم طيب.

- مفيش حاجة علشان أفهِّمالك.. عاوز أروح وخلاص.

- حاضر، بس الصبح يطلع.

- ماشي.. مع أذان الفجر نتحرك...

ويصمت للحظة شارداً ببصره ثم يتابع حديثه وكأنه يتحدث لنفسه:

- مع أذان الفجر لازم نتحرك.. مفيش وقت.. للأسف مفيش وقت، آدم كان عنده حق.

- أنا مش فاهمة حاجة خالص.

- هتفهمي كل حاجة.. جه الوقت إللي كلنا لازم نفهم.. اعملي بس

إللي بقولك عليه..

- حاضر يا بابا.. بس هدِّي من نفسك شوية لو سمحت.

مع أول ضوء للشمس يتحركان نحو الحارة، وبمجرد وصولهما يلحظان حركة غير عادية.. تبدو وكأنها بداية حركة شعبية أو تظاهرة كبيرة.. أناس كُثُر يتوجّهون نحو الحارة فرادى أو مجتمعين.. نساء ورجال.. أطفال وشيوخ.. يسرع دكتور نبوي وابنته ليعرفا ماذا يجري إلى أن وصلا لبيت آدم فإذا بجمعٌ غفير يحيط بالمدخل بالكامل، ويسأل دكتور نبوي شيخ عجوز من الجمع:

- هو في إيه؟

- الدكتور قابل رب كريم.

- بتقول إيه؟

- الواد علي جاره قبل ما ينزل المدرسة الصبح راح له يصبّح ويطَّمن عليه زيّ عادته لقاه قاعد على كرسيه وما بيتحركش ولا بيرد.. الولد نزل يصرخ.. جرينا وجبنا دكتور ساكن مش بعيد بَصّ عليه وقال إنه...

- إنه إيه.. يعني إيه؟

- يعني الدكتور مات.

لم يحتمل دكتور نبوي الصدمة فخرّ ساقطًا على الأرض وميادة تحاول إمساكه والدموع لا تنقطع من عينها فكانت كالفيضان الجارف.. وأثناء كل هذا تتذكر حلم آدم وتفسير العجوز له بأنه لو أبصر لحلَّت النهاية.

مع حلول موعد صلاة الظهر.. يظهر نعش آدم محمولًا على الأكتاف لِيَصَلَّى عليه بمسجد الحارة وقد تسابق على حمله الكثير، لكن تشبّث بحمله عم نبيل والدكتور خليل والحاج جميل وأستاذ مأمون، و يتقدم الموكب الطفل علي لِيَفسِح لآدم طريقه نحو مثواه الأخير.

مع حلول المغرب.. وبعد إقامة الأذان الذي هو إعلان عن غروب الشمس، تتعالى آيات من الذكر الكريم – مُعلنة وفاة العازف الفقير للقاصي والداني- من داخل صوان بإمتداد الحارة والحارات المجاورة وقد ضمّ جمع غفير من البشر تقدمه دكتور نبوي لأخذ عزاء آدم ودموعه لا يستطيع التحكم بها.. آدم الذي أنقذه من الموت، هو مَن مات واليوم هو يأخذ عزاؤه.. الكل كان في عزاء آدم.. مَن قابله أو مَن لم يقابله.. مَن عرفه ومَن لم يعرفه.. كأن أطياف الناس قد أتت لتودِّع الخير أو ربما كان الجميع يتكاتف من خوفهم تجاه الغد وكيف سيكون بدون الخير.. بدون آدم.

أستاذ مأمون قد أعدَّ شقته للعزاء الخاص بالنساء والذي تقدمته ميادة لتأخذ عزاء آدم.. وبعد إنتهاء وقت العزاء تتوجّه ميادة للعجوز التي فسّرت رؤية آدم من قبل وسألتها عن ما كانت تعنيه بأنه "لو أبصر لحلَّت النهاية". وكانت الإجابة؛ بأن آدم ذلك الانسان الذي امتلأ بالخير لو رأى مَن نراه نحن من الشر وأفعاله لما استطاع الحياة، وهذا ما أوّلته له بعد أن استمعت لرؤياه.

مات آدم في هدوء.. كما عاش في هدوء. غادر الدنيا وترك وراءه إرثًا من الخير لن ينقطع. مات وأخذ قلب ميادة معه.. القلب الذي لن يحب أحدًا غير عازف الناي الفقير.. ذهب وقد ترك رسالة تنتظر مَن سيحملها خلفه.. تلك الرسالة التي إذا ضُيّعت لفقدنا الأمس وتاه الحاضر من بين أيدينا واختفى الغد من أمام عيوننا..

بعد أن تعافت ميادة من الصدمة التي أقعدتها على سرير المرض لستة أيام متواصلة.. تعاود الذهاب لعملها وكان نفس المشهد؛ المارة.. عم نبيل.. مبنى المستشفى الضخم.. نفس المشهد، عدا مكان آدم كان خاليَا ولم يكن هناك أثر لنغمات الناي ولن يكون لها وجود ولن يسري طنينها مُجددًا عبر الأثير، ولن يكون هناك صوت للناي إلا في أذن ميادة والذي لن تنساه ما حيت..

لا تزال دكتورة منى تقضي أيامها بين عملها المعتاد في المستشفى وآداء دورها كأم، ولم يتغير وضعها بشيء يُذكَر.. ولن يتغير مهما مرّ بها الزمن إلا بعض التجاعيد التي قد تكسو بشرتها.

إسعاد كذلك ظلت و لا تزال على نفس منهجها ونهجها من السخط على القدر والتي ستظلَّ تتمنى تغييره ما حيَت.. تعيش على أمل أن يُعَيّن مدير جديد للمستشفى حتى تتخلص من أسعد الذي هو بالنسبة لها ليس إلا طوق حديدي يخنق رقبتها.

عم نبيل لا يزال يصيح بصوته الجهوري مُعلناً عن بضاعته.. لكن صوته لم يكن كما هو، وإنما غلبت عليه نبرة الحزن.. ولا تمر لحظات حتى يتابع بنظره مكان جلسة آدم مُتمنِّيًا أن يجده حيث كان هناك دائمًا ولكن لن يجده أبدًا.. ولكي يتذكر دائمًا وجوده، قد علَّق نظارة آدم على الشجرة العتيقة التي كان يستند إليها وأصبحت مهمته كل صباح وضع صندوق الناي فارغًا في نفس المكان الذي كان آدم يضعه به ليبقى المكان يتنفس وجود آدم..

أصبح دكتور نبوي يقضي معظم وقته في ركن من أركان مسجد يقرأ القرآن، وما أن يجد مجموعة من الصبية داخل المسجد يدعوهم للجلوس بجانبه ليحكي لهم حكاية عازف الناي لربما يكون بينهم آدم آخر.. ذلك المسجد قد بناه الدكتورنبوي كصدقة جارية لآدم.. وقد أخذ على عاتقه حمل رسالة الخير.. رسالة آدم.. وأقسم على أن يُبلِّغها لكل مَن يعرفه أو لا يعرفه.. يقينه لم يتزحزح يومًا بأنه لو أتى الغد بدون آدم آخر لكانت النهاية..

بيت آدم كما هو ومسكنه كذلك، ولكن لم يعد هناك وجود لآدم وإنما كانت هناك ميادة تجلس على نفس ذات الكرسي الهزاز وتستقبل ضيوف آدم وتداويهم كما كان يفعل، وتنصرف في العاشرة مساءَ عائدة لبيتها، ولم تنسَ يومًا أن تترك راتبها بالكامل للدكتور خليل صاحب الصيدلية ليأخذ المرضى علاجهم بالمجان...

بعد أن استأذن الطفل علي عائلته في أن يبيت على فراش آدم بجانب الكرسي الهزاز أسفل الشباك الوحيد بالمنزل الخشبي رغبة منه أن يظل المنزل الفقير عامراَ مُحتضناً ناي آدم كل ليلة وحتى الصباح..

دكتور أسعد يعتدل على كرسيه الوثير في المبنى الجديد وبأنامله يطمئن على وضع وإستقامة قطعة خشبية مستطيلة الشكل باهرة التصميم وقد نُقِشَ عليها "السيد الدكتور أسعد الساعاتي.. وكيل أول وزارة الصحة بالقاهرة".. ليتصفَّح بعدها جريدة الأهرام الصباحية ويتابع بإهتمام بالغ أنباء عن تغيير وزاري قادم.

تصطفّ مناضد متراصّة بجانب بعضها البعض بطول الحارة بل بلغ إمتدادها بعض الحارات المجاورة لحارة المناديلي، وافْتُرِشَت بأطباق احتوت على أ نواع مُتعددة من الطعام ليأكل الفقراء، كان الأستاذ مأمون هو يضع الأطباق بنفسه بعدما أنفق مبلغ العشرين ألف جنيه كاملة لتجهيز تلك المائدة كصدقة على روح آدم.. أيضًا لم ينسَ يومًا أن يدعو لعازف الناي في سجوده أثناء صلاته التي لم و لن ينقطع عنها يومًا.

الحياة تستمر بشكل شبه عادي داخل منزل الدكتور نبوي، الذي لا يستطيع أن تمر ساعة دون أن يتحقق من سلامة وضع تابلوه صغير زهيد الثمن قد وضعه مكان لوحة البحر الهائج باهظة الثمن، كان تابلوه صغير مستطيل ذو خلفية سوداء ويتوسطها شمعة مضيئة تسيل منها قطرات الشمع المنصهر.. تلك اللوحة هي ذاتها التي كانت في منزل الفقير.. عازف الناي.. آدم

بداية الحكاية

حكاية آدم لا يصح أن تنتهي.. هذه الحكاية.. هي بداية لحكاية مجموعة من البشر، منهم من أخذ على عاتقه استمرار عمل آدم، ومنهم مَن ألزم نفسه بحمل رسالته.. بل وبحفظها.

مصطفى عبد العزيز